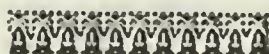
مراسلات متبادلة
بين الشريف غالب بن مساعد
وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق

د. محمد زكريا عناني



مهما اختلفت الاحكام حول الحملة الفرنسية على مصر والشرق (١) (١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ ، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م) ، فالذي لا ريب فيه أن هذه الحملة اثرت تأثيرا عميقا في الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الشرق ، وكانت عاملا فعالا في القضاء على نفوذ المماليك ، وفتح المجال امام محمد علي لكي يؤسس دولة مصر الحديثة .

ومهما قست أراء المؤرخين ، وهي تتناول دور الشريف غالب ابن مساعد (٢) ، فالثابت أن الرجل كان في عصره قوة لا يستهان بها ، وبحسبنا أن نسوق هنا ما قاله عنه الجبرتي في « عجائب الآثار » ، في حوادث سنة ١٢٣١هـ :

« ومات الأجل المكرم الشريف غالب بسلانيك ، وهو المنفصل من عمارة مكة وجدة والمدينة ، وما انضاف الى ذلك من بلاد الحجاز ، فكانت امارته نحوا من سبع وعشرين سنة ، فانه تولى بعد الشريف سرور ، في سنة ثلاث ومائتين وألف ، وكان من دهاة العالم ، وأخباره ومناقبه تحتاج الى مجلدين ، ولم يزل حتى سلط الله عليه بافاعيله هذا الباشا (يقصد محمد علي) ، فلم يزل يخادعه حتى تمكن منه ، وقبض عليه ، وارسله الى بلدة سلانيك ، وخرج من سلطنته وسيادته الى بلاد الغربة ، ونهبت أمواله ، وماتت أولاده وجواريه ، ثم مات هو في هذه السنة » (٣) .

وقد وصلت الحملة الى الشرق ، والشريف غالب في أوج نفوذه وقوته ، ومن الطبيعي — والأمر كذلك — أن نرى نابليون بونابرت يحرص أشد الحرص على توطيد الصلات به ، والحق ان أسباب هذا الحرص من جانب نابليون لها مبرراتها السياسية والحربية والدينية المتعددة ، وهذه الأسباب تتلاحم وتتشابك ، على نحو ما تكشف عنه الرسائل التي ننشرها اليوم ، — وهي واضحة الدلالة في هذا الصدد — ، فقد كان نابليون يعلم جيدا أن لا قبل لبلاده على التصدي للأسطول البريطاني الذي يشدد الخناق على الحملة ، ويسعى جاهدا ليقطع عنها كل سبل المؤونة والاتصال بفرنسا ، ومن ثم كان لزاما عليه ، وعلى كل من كليبر ومينو اللذين توليا القيادة من بعده ، أن يجدوا لهم أعوانا في المناطق الأخرى المجاورة ، وأن يهيئوا وسائل اتصال غير مباشرة تربطهم بالسلطة العليا في باريس (وتكشف الرسائل التي نقوم اليوم بنشرها أن شريف مكة كان أحد هذه الوسائل) .

وفضلا عن ذلك فان مصر ما كانت لتستطيع الاستغناء عن متاجر الهند وافريقيا واليمن ، التي كانت تأتي اليها عن طريق البحر الأحمر ، وكان لشريف مكة دور فعال في نقل هذه المتاجر الى ميناء السويس .

على أن الاعتبار الديني كان يحتل منزلة الصدارة من بين هذه العوامل . فقد كان نابليون بونابرت يعلم جيدا أن العقبة الكبرى التي تواجهه هي عقبة الدين (٤) . ومن ثم يبذل قصارى جهده من أجل تملق مشاعر الأمة ، على نحو ما يتضح من المنشور الأول الذي بدىء في طبعه على ظهر الباخرة « اوريان » ، قبل وصول الحملة للاسكندرية بأيام ، ووزعت منه الوف النسخ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له في ملكه . من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية ... » وفي آخره يدعو الأهالي أن يلتزموا السكينة لأنه ما جاء الا ليؤدب المماليك ، ويحثهم على « أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال : أدام الله اجلال السلطان العثماني أدام الله اجلال العسكر الفرنساوي ، لعن الله المماليك ... » (٥) . ومن دلائل ذلك ما كتبه نابليون الى الشيخ محمد المسيري ، أحد علماء الاسكندرية في رسالة بعث بها من القاهرة :

« لقد سرني ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وانك تعلم مدى احترامي لك منذ عرفتك ، وأتمنى أن يجيىء الوقت الذي أستطيع أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها ، وأن أضع نظاما موحدا مؤسسا على مبادىء القرآن ، تلك المبادىء الصحيحة التي تكفل للناس سعادتهم » (٦) .

وقد بلغت هذه السياسة أوجها عند جاك مينو ــ الذي كان حاكما على ثغر رشيد ، قبل أن يتولى القيادة العامة عقب مصرع كليبر ، فقد تظاهر باعتناق الدين الحنيف ، وتسمى بـ « عبد الله جاك منو ، وسعى حتى تزوج بامرأة مسلمة ، وجاء في عقد الزواج : « بعد أن أقر واعترف منـو باشا ساري عسكر بالقطر المصري حالا بصريح لفظه وفصـــيح نطقه بكلمتي الشهادتين وهما أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، عارفا معتقدا معناهما ، ومصدقا بمضمونهما ، تاركا لدين النصرانية والأديان الرديئة على الترتيب والولاء واعادة التشهد واســتيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعا طائعا مختارا من غير اكراه ولا اجبار ، وبمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل اليهم ، وسمى نفسه عبد الله باشا ... » (٧) .

وهناك ــ في هذا الصـــــدد ــ وثائق واجراءات ومواقف عديدة لم تلبث أن رفعت راية الجهاد ، وأعلنت غضبها المرة بعد الأخرى ، الى أن ارتحلوا عن البلاد (٨) .

وقد سعينا لجمع أكبر قدر من نصوص الرسائل المتبادلة بين الشريف غالب بن مساعد ، وبين نابليون بونابرت ورجال حملتـه على الشرق من مصادر عربية وفرنسية ، بعضها عزيز الوجود ، وبيانها كالتالي :

● مجلد ضخم يضم قرابة خمسين وثيقة مما طبع بالقاهرة بمطابع الحملة الفرنسية ، وهذا المجلد ــ المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس ــ يحمل الآن العنوان التالي :

" Recueil des arretes et proclamation de L'autorite francaise en Egypte pendant I.' occupation "

« مجموعة القرارات والبيانات التي أصدرتها السلطة الفرنسية في مصر في أثناء الاحتلال » ، وهي محفوظة تحت رقم: Gr. fol. L. h. 4117

● « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » لعبد الرحمن الجبرتي ويضم نص رسالة تبودلت بين الشريف غالب و « مدبر الحدود بوسليك » ، وكان مسئولا عن ادارة الشئون المالية للحملة .

● افادة الأنام (مخطوط) لعبد الله غازي . وفيه نص رسالة بعث بها نابليون بونابرت للشريف غالب . وقد نقلناها من كتـــاب « تاريخ مكة » للأستاذ أحمد السباعي (٩) .

● Oeuvres de Napoléon Bonaparte

« أعمال نابليون بونابرت » ، طبعة سنة ١٨٢١م (باريس) وفيها بعض رسائل موجهة للشريف غالب .

● F. Rousseau, " Kleber et Menou en Egypte depuis le depart de Bonaparte ", Paris, 1900

روسو : « كليبر ومنو في مصر منذ رحيـــل بونابرت » ط. سنة ١٩٠٠ (باريس) .

وبالكتاب نص رسالة أرسلها منو للشريف غالب ، لم ترد في كل المراجع السابقة .

هذه هي المؤلفات التي عثرنا فيها على مراســـلات بين شريف مكة ورجالات الحملة الفرنســية ، ولا شـــك أن المزيد من التنقيب كفيل بأن يضيف جديدا في هذا المضمار (١٠) .

★★★

[] الرسائل مرتبة ترتيبا تاريخيا ، مع تعريب للرســـائل المدونة بالفرنسية .

الرسالة الأولى

وترد في نصها الفرنسي ضمن « أعمال نابليــون » ، وقد كتبت في ٢٥ أغسطس سنة ١٧٩٨م (ربيع الأول من سنة ١٢١٣) فاذا علمنا أن الفرنسيين نزلوا غرب الاسكندرية في ١٨ محرم سنة ١٢١٣هـ (٢ يوليو ١٧٩٨م) ، وأن نابليون انتصر على المماليك في واقعة امبـــابة (معركة الأهرام) في ٧ صفر ١٢١٣هـ (٢١ يوليو ١٧٩٨م) عرفنـــا أن نابليون بونابرت بعث برسالته هذه للشريف غالب ، بعد دخوله القاهرة بنحو شهر من الزمان ، وفي هذا دليل على مدى الأهمية التي أولاها لهذا الأمر ، فقد كانت تحيط به متاعب شتى ، منها ــ على سبيل المثال ــ تحطم أسطوله في في موقعة أبو قير (أول أغسطس سنة ١٧٩٨م) واشتعال المقاومة في أنحاء متعددة ، ورغبته في احداث تنظيمات ادارية عاجلة يسير بها شئون مصر :

ترجمة نص الرسالة :

« القاهرة ، في ٨ فريكتيدور من العام ٦ (٢٥ أغسطس ١٧٩٨)

انني اذ أخطركم بدخول الجيش الفرنسي مصر أعتقد أنه من الواجب أن أطمئنكم على عزمي الوطيد على أن أحمي بكل السبل رحلة الحجيج الى مكة ، وستظل المساجد وكل الأوقاف التي لمكة والمدينة في مصر في حوزتهما كما كانت في الماضي • أننا أصدقاء للمسلمين ولعقيـــدة الرسول ، ونحن راغبون في القيام بكل ما من شأنه أن يسركم ويكون في صالح الدين •

واني لأرغب في أن تعلنوا في كل مكان ان قافلة الحج لن تعاني من أي توقف ، ولن تخشى شيئا من الأعراب •

بونابرت »



الرسالة الثانية

وتأتي هذه الرسالة بعد يومين فحســـــب من تاريخ كتابة الرسالة السابقة ، وتحمل تفصيلات أكثر عن طبيعة العلاقات بين الشريف غالب وبونابرت :

ترجمة نص الرسالة :

« القاهرة في ١٠ فريكتيدور من العام ٦ (٢٧ أغسطس ١٧٩٨)

اليـه نفسـه

انني أبادر بأن أعرفكم بوصولي على رأس الجيش الفرنسي للقاهرة ، وبالاجراءات التي اتخذتها للحفاظ على ما للمساجد المقدسة في مكة والمدينة من الدخول التي كان مستوجبة لها •

وسيبين لكم ، عن طريق الرسائل التي ستصل اليـــكم من الديوان ومن مختلف التجار في هذا البلد ، مدى الرعاية التي اكرسها لرعاية العلماء والأشراف وكل رجال الشريعـــة • وســـترون كذلك أني عينت كذلك مصطفى بك (١١) ، كتغدا سيد أبي بكر باشا وحاكم القاهرة ، وسيقوم بمرافقة الموكب مع قوة تكفل لها الحماية من غارات الأعراب •

واني لجد راغب في أنكم ، عن طريق ردكم ، تعرفوني عما اذا كنتم تودون أن تقوم فرق تابعة لي بحماية القافلة ، أو يكتفى بفيلق خيالة من أهل البلاد ، ولكن في جميع الأحوال بلغوا جميع التجـــار والمؤمنين بأنه لا يوجد للمسلمين من هو أكثر مني صداقة لهم ، وكذلك للأشراف وكل الذين يكرسون وقتهم وطاقاتهم لتعليم الشعب ، فليس لهم أشد غيرة على

حمايتهم ، وبان التجارة لن تكون فحسب بمنأى عن الخطر ، بل ستكفل لها حماية خاصة • وبانتظار ردكم مع رجوع البريد •

لتبلغني كذلك عن الضرورات التي تحتاجون اليها من قمح أو أرز وسامتم بأن ترسل كلها اليكم •

بونابرت »

الرسالة الثالثة

وهذه الرسالة بعث بها الشريف غالب بن مســـاعد شريف مكة الى نابليون بونابرت • ولا تحمل الرسالة تاريخا ، ولكن محتواها يدل على أنه من الممكن اعتبارها بمثابة رد على الرسالة السابقة •

والنسخة التي نقدم نصا لها مطبوعة بالقاهرة ، بالمطبعة الوطنية ، أي بتلك المطبعة العربية التي حملها الفرنسيون معهم • ولعل نسخا من هذه الرسالة ، بحجمها هـــذا الذي طبعت به (٢١ × ٢٩ سم) أو بحجم اكبر (١٢) ، علقت في بعض المواضع الرئيسية بالقاهرة ، ليطلع عليهـا الأهالي ويظهر الفرنسيون ، على ضوئها ، في مظهر الحريصين على اقامة الشعائر الدينية ، ويبين أنهم على علاقات طيبة مع شريف مكة •

وطبع في أعلى الرسالة بالحرف الغليظ :

Lettre Du Cherif De La Mekke Au General En Chef Bonaparte

(خطاب من شريف مكة الى القائد العام بونابرت)

وفي ذيل الوثيقة :

Au Kaire, De L,impremerie Nationale

(القاهرة ، بالمطبعة الوطنية) •

نص الرسالة (١٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين •

محل الخاتم ومكتوب في وسطه عبده غالب مساعد ١٢١٣ من الشريف غالب بن مســـاعد شريف مكة المشرفة ، الى أمير الجيـــوش الفرانساوية بوبابارته (!) سادي عسكر الكبير في الأقاليم المصرية ، يجري الله الخير على يديه •

LETTRE

DU

CHERIF DE LA MEKKE,

AU

GENERAL EN CHEF BONAPARTE.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلوة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام
المرسلين وعلى اله وصحبه اجمعين

محل الخاتم ومكتوب فى وسطه عبده غالب مساعد ١٢٠٣

من الشريف غالب ابن مساعد شريف مكة
المشرفة الى امير الجيوش الفرانساويه بونابارته
سارى عسكر الكبير فى الاقاليم المصريه اجرى
الله الخير على يديه .

بعد السلام عليكم فقد وصل كتابكم
وفهمنا كامل ما حواه خطابكم وما ذكر عن
التماسكم لمصطفى اغا كتخدا والى مصر امارة
حجاج المسلمين فهو عين الصواب وذكرتوا
انكم عازمين على ارسال حجاج المسلمين الى
بيت رب العالمين فطلبنا امنيهم من طرفنا
فالمانع ليهم وعليهم امان الله من جميع
المخاوف ولا صاد لهم عن بيت الله وزيارة رسول
الله ولا جعل الله الكعبة البيت الحرام الا لاداء
فريضة حج الاسلام فيحجون كعادتهم يحجون
وهم امنون وما ذكرتوا عن تشتيت من التجار
فلا يخفاكم ان المذكورين غير امنين العوايل
التي راوها فى الزمان السابق فاذا ردتوا تلك
ارسلوا لهم ما يؤمن خواطرهم ويبينوا لهم
ما ياخذوه من العشور على بضاعهم واموالهم
فاذا فعلتوا فهم يصلون اليكم ويعلمون ذلك
لا يامنون هذا ما عندنا به التسطير
وما ذكرتوا من تعرض العربان للحجاج
المسلمين فلا يصير ذلك بحول الله وقدرته
وهمتكم العليه هذا والسلام على من اتبع
الهدى ٭

AU KAIRE, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE.

بعد السلام عليكم ، فقد وصل كتابكم ، وفهمنـــا لحامل ماحواه خطابكم ، وما ذكر من الباسكم لمصطفى أغاكتخدا والي مصر امارة حجاج المسلمين فهو عين الصـــواب ، وذكرتوا بأنكم عازمين على ارسال حجاج المسلمين الى بيت رب العالمين ، بطلبا أمنيتهم من طرفنا ، فلا مانع لهم ، ولهم أمان الله من جميع المخاوف ، ولا صاد لهم عن بيت الله وزيارة رسول الله ، ولا جعل الله الكعبة البيت الحرام الا لأداء فريضة حج الاسلام فيجون كعادتهم يحجون وهم امنون ، وما ذكرتوا عن تمشيت بن التجار ، فلا يخفاكم أن المزكورين (!) غير امنين النوايل التي راواها (!) في الزمان السابق ، فاذا ردتوا ذلك ارسلوا لهم ما يومن خواطرهم وبينوا لهم ما تاخذوه من المشور على بتنائم وأموالهم فاذا فعلتوا فهم يصلون اليكم ، وبخـــلاف ذلك لا يامنون .

هذا ما عنى لنا به التسطير ، وما ذكرتوا من تعرض العربان للحجاج المسلمين فلا يصير ذلك بحول الله وقدرته وهمتكم العالية .

والسلام على من اتبع الهدى ،

★★★

الرسالة الرابعة

وترد ضمن « أعمال نابليون » ، وهي الرسالة الوحيدة التي توجه باسم « سلطان مكة » لا الى « شريف مكة » ، ولسنا نملك النص العربي منها حتى يمكن ، على ضوئه ، الجزم بدلالة هذ التغيير ، والأبعاد السياسية التي تنطوي وراء مثل هذا التعبير .

ترجمة نص الرسالة :

« القاهرة ، في ٦ بلو فواز من العام ٧ (٢٥ يناير ١٧٩٩)

الى سلطان مكة

لقد تسلمت الرسالة التي كتبتموها الي ، وفهمت محتواها ، وأرسل لكم اللائحة التي قمت بوضعها لجمرك السويس ، وفي عزمي ان يتم تنفيذها بدقة ،

ولا يخالجني الشك في أن تجار الحجاز سيلحظون بامتنان مدى التناقص الذي طرأ على الرسوم الجمركية ، وذلك من أجل الصالح العام للتجارة ، وتستطيع أن تطمئنهم بأنهم سيحظون هنا بموفور الحماية .

وفي جميع الحالات التي تحتاج فيها لشيء من مصر ، ما عليك الا أن تعرفني ، وسيكون مدعاة لسروري أن أعبر لكم عن دلائل تقديري ·

بونابرت »

★★★

الرسالة الخامسة

وهي احدى الرسائل القليلة التي وصل الينا نصها بالعربي ، ولم ترسل الى نابليون بانابرت ، بل الى بوسليج Poussielgue أحد كبار رجال الاقتصاد الذين صاحبوا الحملة ، حيث أصبح « مراقبا لنفقات الجيش ، وعهد اليه نابليون بادارة الشئون المالية ، وكان يثني عليه ، لكنه غضب عليه بعد عودته الى فرنسا لما اطلع على رسائله الى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته ، ولما عاد الى فرنسا أهمله نابليون » (١٤) ·

ويرد اسمه في هذا النص على أنه « بوسيلك ، مدبر الحدود العامة بمصر » ، والنص نفسه يورده الجبرتي في عجائب الآثار ، ضمن أخبار سنة ١٢١٣ ، مسبوقا بقوله :

« وفيه حضر الى السويس تسعة داوات بها بن وبهار وبضائع تجارية ، وفيها لشريف مكة نحو خمسمائة فرق بن ، وكانت الانجليز منعتهم الحضور ، فكاتبهم الشريف فأطلقوهم بعد أن حددوا عليهم أياما مسافة التنقيل والشحنة ، وأخذوا منهم عشوراء ، وسامح الفرنسيس ابن الشريف من المشور لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب الى السويس بنحو عشرين يوما ، طبعوا صورتها في أوراق والصقوها بالأسواق ، وهي خطاب لبوسليك ، وصورته · » من الشريف غالب بن مساعد ، شريف مكة المشرفة الى عين أعيانه ·· » الخ ·

والنص الذي الصق بالأسواق طبع على ورق كبير الحجم (٤٠ × ٢٩ سم) ، وكله بالعربية ، باستثناء الشعار الذي في أعلا المنشور ، والذي يتضمن بالفرنسية : « الجمهورية الفرنسية » ·

ويتضمن المنشور بعض عبارات دعائية ، توضح كيف أراد الفرنسيون أن يستغلوا صلاتهم بالشريف غالب — التي كانت في جوهرها صلات تجارية — لاجتذاب الرأي العام اليهم ، وهذه العبارات نصها :

• صورة مكتوب حضر من مكة المعظمة خطابا من سلطان مكة مولانا الشريف غالب ، ارسله لمصر الى الدستور المكرم والمشير المتحشم (كذا) الوزير بوسيلك مدبر الحدود العامة بمصر حالا زاده الله جلالا واقبالا

دل مضمونه ، وأوضح مكنونه على صحة مصادقة الشريف للدولة الفرنساوية ، ومزيد مودته لهم مع صدق النية ، بخلاف ما يظنه سفها الرعية ، وعرفنا من ذلك أن حضور الجماعة قطاع الطريق على القصير من غير اطلاعه ، وبغير اذنه ، فجزاهم ما حل بهم حيث تخطفهم الطير ، وقد هلكوا في الصعيد ، بعسكر الفرنساوية ، أهل الشجاعة والمحاربت (!) القوية ، الأسدية ، وحاصل مكتوب الشريف للوزير لأجل ما يعتبر به الكبير والصغير ، ويسلموا الى مولاهم في سائر المقادير ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وهو اللطيف الخبير ، •

نص الرسالة :

• بيان لفظ المكتوب

من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة الى عين أعيانه وعمدة اخوانه الوزير الشهير (١٥) بوسيلك (١٦) ، مدبر أمور جمهور الفرنساوية ، معهد بنيان السياسة بسداد همه (١٧) الوفية ، وبعد

فانه وصل الينا كتابك ، وفهمنا كامل ماحواه خطابك ، مما ذكرت من وصول قنجتنا ، وأنك ارسلت مجانا برفع العشور عن البن ، وبذلت الهمة في شان التصرف في نفاذ بيعه ، فهذا ما نؤمله من حميد الحركات ، ووفاء المصادقات ، فأوجب ذلك عندنا وافر السرور ، ومزيد الود والحبور (١٨) ، وتأملنا في كتابك ، فوجدنا من صدق مقاله ما أوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد على ثموه غياهب الشك في كل مراد (١٩) •

وواجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة ، وشهلنا الآن الى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الأوان ، ولا أمكن لنا خروج هذا المقدار الا بأشد علاج (٢٠) ، مع سلب اطمينان التجار لأن كثرة اكاذيب الأخبار أوجبت لديهم (٢١) مزيد الارتياب والأعذار بحيث ما بيننا وبينكم الا العربان المختلفة رواياتهم على ممر الأزمان ، وأما نحن فقد جاءنا منكم قبل هذا المكاتب التي أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والأكاذيب فخاطرنا مستقر بالطمأنينة من قبلكم لما ثبت عندنا من ألفاظ كتبكم •

والمطلوب في حال وصول كتابنا اليكم ارسال عسكر من لديكم الى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس ويصلوا بالأبنان الى مصر ، ويبيعوا (٢٢) التجار ويزول وقف الأسباب والباس وتهتموا في رجوعهم كذلك قبل باوان ليكون ذلك سببا في كثرة وفود الأبنان ، وعند رجوعهم بعد المبيع من مصر الى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق ، لأن هذه المرة ما أرسل اليكم هذا المقدار الا تجربة واستخبار من اعيان التجار ، وعند مشاهدة الاكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون اليكم نفيس اموالهم ويهرعون بالجلب لطرفكم ، ويزول الريب عن قلوبهم ٠

ونرجو (!) اللّه بهمتنا تسلك الطرقات ، وتنجح المطالب وتحصل الميرات (٢٣) بأحسن مما كانت من الأمان ، وأعظم مما سبق في غابر الأزمان ، ويكثر بحول اللّه الوارد اليكم من الأسباب الحجازية ، وكذلك لنا بن في المراكب ، فما مولنا منكم القا النظر على خدامنا ، وبذل الهمة على ما هو طرفنا ، وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الاكرام في كل مرام

ولا يخفاك انه ورد علينا قبل بايام كتب من طرف أمير العسكر الفرنساوي محبنا بونابارته فما كان لنا منها فتاملناه ، وصار اليه الجواب توصله اليه ، وما كان منها معول (٢٤) في ارساله علينا الى نواحي الهند وابن حيدر (٢٥) وامام مسكت (٢٦) ووكيلكم الذي في المخا (٢٧) فجميعا صدرناها (٢٨) من طرفنا مع من نعتمده الى اربابها ٠

وان شاء اللّه عن قريب يأتيكم الجواب (٢٩) ٠

تحريرا في ١٨ شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣ ،

ويتلوه ، في نفس المنشور :

« وقد وصل هذ الجواب لمصر (٣٠) في ١٤ شهر الحجة (ا) فيكون مدة وصوله من مكة المشرفة لمصر ثمانية وعشرين يوما ، وبعد وصول هذا الكتاب بسبعة ايام وصلت مكاتيب البشارة الخاص والعام بدخول احدى عشر داوا الى بندر السويس بسلام ، فحصل بهذا الخبر الخزي للكذابين وبطل كلام المجرمين فالزموا الأدب مع اللّه وارضوا بأحكام اللّه والسلام عليكم ورحمة اللّه ٠

طبع في مطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة »

الرسالة السادسة

وهذه الرسالة ورد نصها في مخطوطة كتاب « افادة الأنام » — ولم نعثر بعد عليه — ونقلناها عن كتاب الأستاذ احمد السباعي « تاريخ مكة » الذي قدم لها بقوله :

« نابليون لونابرت (!) يكتب لغالب :

وعلى أثر استقرار الفرنسيين في مصر كتب قائدهم الأعلى نابليون لونابرت (!) يعرض على الشريف غالب في مكة بعض الاتفاقات التجارية ، وينذره اذا حاول قطعها ، فكتب اليه الشريف غالب الخطاب التالي » :

وبعد أن اورد نص الرسالة اضاف « ملاحظة » هي :

« كان عنوان غلاف الكتاب :

(عين أعيانه وعمدة أخدانه بونابرته ، امير الجمهـــور الفرنساوي بمصر القاهرة حالا ٨٦٤٢ (؟)) وكان الختم مكتوبا في وسطه :

(عبده غالب بن مساعد سنة ١٢١٣)

وكتب في أعلا الخطاب (اسنادي الى الله

وفي أسفله (اعتمادي على الله)

وفي احدى الجانبين (مرادي رضا الله)

وفي الجانب الآخر (اعتقادي في الله)

نص الرسالة :

« من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة ، الى قدوة أعيان (الرانه) الدولة الفرنساوية او عمدة اركان اخوانه المشهور بســـداد همته الوافية بونابارته ، سرعسكر ومقدم كبرائهم في كل مصدر ، وبعد

فداعي التحرير وموجب التسطير وصول كتابك واحاطة علمنا لما حواه خطابك وماذكرت من وصول كتبنا وتصفح مضمونها ، وارسال القول من طرفكم بما يوجب تبيان حدود رسومات اموال التجار في البلاد المصرية ، وجريان سماحنا لخمسمائة فرق الى آخر ماشرحتمـــوه من الكتاب لصريح وثاقه صدق الاعتماد في كل مصدر من جهاتنا الحرمية ، ومطلوب منا ايصال

الكتب المرسلة على يدنا لمحلنا ، أحدها لولد حيدر تيبو سلطان ، والثاني لامام مسكت والثالث لوكيلهم بالمخا فقد وصلت الينا وارسلناها بيد معتمد من طرفنا لأصحابها طبق المرام ، وان شاء الله عن قريب يجيئكم الجواب ، وما كان من همتنا في جلب التجار الى الديار المصرية ، واعتمدنا لخطكم واكيد قولكم ، فنرجو الله ما نعتمد خلافه . وقد كان تجار بندرنا المعمور في روع من الأكاذيب المختلفة على أموالهم وصدورها لطرفكم وحين ورد منكم هذا القول الأكيد كافة تجارنا في أسباب الجلب اليكم ، وتعهد لهم كامل ما توهمت به ضمائرهم من ضمان الأمان على أموالهم ، وانما كان الانتظار منا لوفود من جهتنا ورسولنا المصدر اليكم ٠

فلما كان اليوم السابع من شهرنا هذا وصل المذكور الينا وبه كتاب وكيلك المتمـــــد الوزير برســـيلك (كذا) المعلن بمزيد الالتفـــات لوفادنا اليه وهمته في أمور مر .لاتنا من البن وغيره وهي خمسة مراكب مشحونة من طرف تجارنا وفيها مامور هو مسطور أعلاها باسمنا فهو.لنا وصحبتهم منحتنا ومراسلينا بالسطور ، فالمطلوب عند وصولهم الى السويس أن ترسلوا من طرفكم عسكر يحافظون على الأبنان الى أن تصلكم الى مصر ، ويبيعونها ، فعند اعادتها بأثمانها كذلك تشيعوهم بالعساكر الى ان يدخلوا سفائنهم . حرصا عليهم من خطر الطريق . فاننا ما أمكن تامين التجار على هذا المقدار الا بأشد علاج وما صدر هذا القدر الا بصدد التجربة من شدة ما تاكد عليهم لديهم من توهم الأكاذيب المتناثرة ، لأنه ما بيننا وبينـــكم الا العربان ، فاذا شاهد التجار مزيد الاعتناء بأموالهم . ومحافظاتها من مخاطرات الأسفار والاحتفال باكرامهم هرعوا بالجلب الى مصر في كل ان ، ونرجو بهمتنا أن نسلك الطرقات وتنجح الميرات بأحسن ما كان من الأمان ، ويكثر الوارد اليكم من الأسباب الحجازية ، لا سيمان عند وجدان صدق مقالكم تتكون أسباب صداقتكم فالآن مامولنا منكم القاء النظر على ما هو لنا من البن حسب ما هو مرقوم اسمنا في ظهور (فروقتـــــا) والالتفات لخدامنا ، وكذلك لا يخفاكم أن لنا عوائد ومرتبات في مصر ، مع سماح الخمسمائة الفرق دراهم نقدية ، وهنا بيان ما هو لنا بالديوان العالي في مصر ، الواصلة الينا صحبة الحاج مع كاتب الصرة وصيرفها :

من الصرة الرومية	٥٤٠٠٠٠
ثمن مرس وشطرات	١٧٠٩١٧
معتاد بني حسين وبني تراب	٤٨٧١٧
من أشراف بني تراب بدفتر متقاعد	١٩٥١٢

عن مرتب وقف الدشيشة الكبرى ١٢٥٣٢٥
عن وقف المحمدية بالثلث بدفتر متقاعد ٨٣٣٣٣
حوالة كاتب الحرم بمكة من اربطة ١٧٥٨١١
عن صرة شريف مكة انعام الدولة العلية ١٠٠٠٠٠٠
منها دواوين ٢١٦٣٦٧٩
ولنا في وقف الجامكية المستجدة يسلمها لنا أمين الحاج دواوين ٥٠٨٥٠٠
عنها ريال فرانسة ٥٦٥٠

حرر في ١٨ شهر ذي القعدة ١٢١٣ » ٠

الرسالة السابعة

وترد ضمن « أعمال نابليون بونابرت » وكتبت في ٣٠ من يونية ١٧٩٩ أي قبيل رحيل نابليون بأقل من شهرين (اذ أنه ارتحل في ٢٢ من أغسطس الى فرنسا ، متخفيا) ٠

ترجمة نص الرسالة :

« القاهرة في ١٢ مسيدور من العام ٧ (٣٠ يونيه ١٧٩٩)

الى شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله لقد تسلمت رسالتكم ، وفهمت محتواها ، وقد أصدرت أوامري بحيث يعمل كل ما من شأنه أن يقنعكم بمدى الود والتقدير الذي أحمله لكم

وتأمل أنكم في الموسم القادم تقومون بارسال عدد كبير من السفن المحملة بالبن وبضائع الهند ، وسيكفل تأمين هذه السفن ٠

واني لأعرب لكم عن شكري لقيامكم بارسال ما بعثت من رسائل للهند والى فرنسا ٠ أوصلوا هذه الرسالة كذلك ، ووافونا بالرد ٠

وثقوا في التقدير الذي أكنه لكم ، وفي الاعتبار الذي أحمله لصداقتكم

بونابرت »

ويرد بعدها في نفس المصدر نص يتصل بالشريف غالب هو :

« القاهرة في ١٢ميسيدور من العام ٧ (٣٠ يونية ١٧٩٩)

الى قومندان « ايل دي فرانس (٣١)

أرجو أيها المواطن القومندان ، أن تقوموا بدفع مبلغ ٩٤٠٠٠ فرنك الى شريف مكة ، وهو المبلغ الذي سيقوم أمين الصرف بالجيش بسحبه ، بموجب ثلاث رسائل تحـــويل على أمين الصرف في ايل دي فرانس ، كما ستقوم الغزانة الوطنية باتخاذ اللازم ٠

« وقد اعتقدت أنه من الواجب أن أستعمل هذه الطريقة لكي يكون لنا قناة موثوق بها لكي نتراسل معكم على الرغم من الطرادات [الانجليزية] التي تعيث في البحر الأحمر فسادا ٠

ولكم تحياتي « بونابرت »

الرسالة الثامنة

ويرد نصها الفرنسي في كتاب فرانسوا روسو الذي يحمل عنوان « كليبر ومنو » ويضم الوثائق التي تتعلق بالحملة في ظل خليفتي بونابرت في مصر ٠

وتتميز هذه الرسالة بمدى غلبة روح الملق عليها ، والرغبة الشديدة في التأثير على الشريف غالب ، لأن الجنرال منو ، كاتب هذه الرسالة كان ينتهج سياسة استعمارية ترمي الى محاولة البقاء في مصر ، على العكس من نهج سلفه كليبر ، الذي أدرك أن من الخير تصفية الحملة والرحيل وفقا لشروط مشرفة ٠

ترجمة نص الرسالة :

« من منو الى شريف مكة

(نقلا من مينيتور يونيفرس ، بتـاريخ ١٥ نيفوز من العـــام ٩) ٩ فريمير من العام ٩ (٣٠ نوفمبر ١٨٠٠) ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله

من عبد الله جاك منو ، القائد العام للجيش الفرنسي [الموجود] حاليا في مصر ، ممثلا فيها حكومة الجمهورية الفرنسية ؛

الى الشهير ذائع الصيت ، الأعظم بين الأعاظم ، خليفة رسول الله ، المنعم بالعقـــل والحكمة والقوة ، المنتصر على الدوام ، الأمير غالب ،

الشريف العظيم على المدينتين المقدستين ، المهيمن على أجمل منطقة في شبه الجزيرة العربية •

أيها الأمير الشهير ، الصديق

بعد أن استعلمت عن صحتكم ، وتمنيت لكم كل السعادة التي تستحقونها ، والتي تصبون لها ، أبادر بأن أعلمكم بأني عينت قائدا عاما على الجيش الفرنسي [المقيم] الآن في مصر ، بعد الاغتيال الرهيب الذي اودى بشخص سلفي صديقكم القائد العام كليبر

ان صديقكم القديم بونابرت ، القنصل الأول للجمهورية الفرنسية وأشهر محاربي اوربا ، هو الذي عينني في مكانه ، واني لأهنيء نفسي اذ أتاح لي امكانية التراسل مع من هو الأكثر قداسة من بين جميع الأمراء الذين يتبعون العقيدة الحقة ، والذين يعبدون الله ويوقرون نبيه •

أيها الأمير الشهير

لقد كلفني بونابرت بأن أجدد معكم كل مواثيق الصداقة ، ومن ثم ابادر بأن أعرفكم بأن رعاياكم يستطيعون الحضور للسويس دون أي خوف ، ومن الآن فصاعدا لن يلحق بالتجار اهانة او تنكيد ، وقد ألغيت كل القوانين القديمة لكيما لا أبقي الا على قانون واحد مطلق ، ولو أن فردا فرنسيا او اي موظف آخر في جمرك تجرأ ان يأخذ مثقال ذرة واحدة (٣٢) أكثر مما حددت ، فانه سيدفع حياته اذ ذاك ثمنا لها ، وقد فعلت ذلك مراعاة لكم ، أيها الأمير الشهير •

ولقد كنت اريد أن ارسل لكم هذه السنة ، كما كان ذلك في السابق ، قافلة الحجيج ، التي تضم من كل الأمم لأجل زيارة المدينتين المقدستين ، وكنت اريد أن ارسل لكم الكسوة لتغطية الكعبة المقدسة ، لكن ظروف الحرب لم تمكن من ذلك ، وارجو في العام المقبل ان أكون احسن حظا ، وسأنصب كأمير للحج مسلما يكون حريا بمهمة على هذا القدر من التشريف ، وسأقوم ، في النهاية ، بكل ما من شأنه أن يبرهن لكم ، أيها الأمير الشهير على مقدار رغبة الجمهورية الفرنسية في أن تكون على وفاق معكم ، وانني لأعتبر نفسي سعيدا اذ اكون لسان حالها ، حيث أنها كلفتني بأن اقدم لكم التوكيدات الوطيدة لتقديرها العميق •

وارجو الله ورسوله ان ينعم عليكم بعمر مديد ، وبرخاء غير مقطوع ، وانتصارات بلا عدد على أعدائكم •

ملحوظة : أرسل لكم أيها الأسير التسعير التعريفة الجمركية التي نفذتها في كل أنحاء مصر . وسترون أن الرسوم الجمركية أصبحت أقل قدرا في السويس مما كانت عليه في الماضي ».

النصوص ذات الأصل الفرنسي . وهي على الترتيب ، الرسائل رقم ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٨ .

الهوامش والمصادر

١ – نشير هنا إلى المراجع الرئيسية عن الحملة الفرنسية ، بالعربية والفرنسية والانجليزية ، وهي :

عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٢٩٧هـ .

عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، جزءان ، تحقيق احمد زكي عطية واخرين ، القاهرة ١٩٦١ .

نقولا الترك ، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية (نشر وترجمة أ. ديجرانج) باريس ١٨٣٩ .

عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، جزءان ، الاول ط ٤ ، القاهرة ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م ، الثاني ط ٣ ، ١٣٧٨هـ ، ١٩٥٨م .

د. محمد فؤاد شكري ، الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، القاهرة ، بدون تاريخ .

د. محمد فؤاد شكري ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ١٩٥٢ .

محمود الشرقاوي ، مصر في القرن الثامن عشر ، ٣ اجزاء ، القاهرة ١٩٥٧ .

Reybaud, L. : " L' Histoire Scientifique et Militaire de L' Expedition Francaise en Egypte, " 10 vol Paris, 1830 - 36

Rigault, G. " Le General Abduallah Menou et La derniere phase de L' Expedition d' Egypte " (1799 - 1801) Paris 1911.

Bainville. " Bonaparte en Egypte ", Paris 1936.

Bainville, " L' Expedition Francaise en Egypte ", dans "Precis de L' Histoire d' Egypte, t. 111, Le Caire, 1933.

Charles - Roux, F. " Bonaparte gouverneur d, Egypte " Paris 1936.

Elgood, P. G., " Bonapart's adventures in Egypt ", London 1936.

٢ ـ نكتفي بان نسوق هنا ما ذكره العلامة الزركلي في « الاعلام » ط ٣ جـ ٥ ص ٣٠٤ عن الشريف غالب (توفي سنة ١٢٣١هـ ـ ١٨١٦م) :

« غالب بن مساعد بن سعيد الحسني ، من امراء مكة ، وليها بعد وفاة اخيه سرور ، (سنة ١٢٠٢هـ) ونازعه ابن اخيه (عبد الله بن سرور) فقبض عليه غالب واستتب له الأمر زمنا ، وفي أيامه قوي الامام سعود بن عبد العزيز بنجد ، وهاجمت جيوشه الحجاز فقاتلها الشريف غالب ، وتقهقر الى جدة ، ثم اظهر الطاعة لسعود ، حتى كان كاحد عماله ، وعاد الى مكة ، واستمر في الامارة الى ان زحف محمد علي باشا (والي مصر) بجيش كبير من الترك وغيرهم لقتال السعوديين ، فتحول الشريف عن ولائه لآل سعود ، فاستخدمه محمد علي مدة قصيرة ، ثم قبض عليه وارسله الى مصر (سنة ١٢٢٨) فاقام اشهرا ، وارسل الى الاستانة فنفته حكومتها الى سلانيك فتوفي فيها ، وكان فيه دهاء ، واخباره مع آل سعود كثيرة ، اشار اليها مؤرخو عصره ، وذكر عنه مراجع متنوعة اهمها « عنوان المجد » لابن بشر ، وتاريخ الجبرتي »

٣ ـ « عجائب الآثار » جـ ٤ ص ٣٦٢ .

وانظر نفس المصدر ، ٢/١٥٨ ، ١٧٢ ، ٣/٥٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٤/٥ ، ٦ ، ١٣٥ ، ١٧٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ .

وانظر بحثا لاحمد مرسي « شريف مكة بين قوتين » في مجلة « الدارة » ، العدد الثاني من السنة الأولى (جمادى الثانية ١٣٩٥ ، يونيه ١٩٧٥) ص ١٥٠ ـ ١٥٩ ، والعدد الأول من السنة الثانية (ربيع اول ١٣٩٦) ص ١٦٨ ـ ١٧٤ .

٤ ـ انظر في تفصيلات موضوع « سياسة نابليون الاسلامية » :

Cherfils, Christian : " Bonaparte et L'Islam d'apres Les documents francais et arabes " Paris 1914.

Chauvin, victor, " La Legende Egyptienne de Bonaparte Paris, 1936.

Spillman, G., "Napoleon et L' Islam" Paris 1969.

٥ ـ لهذا المنشور اصلان احدهما عربي والآخر فرنسي ، وقد اورد الجبرتي ٣/٤ ـ ٥ الأصل العربي ، ونقله عنه عبد الرحمن الرافعي في « تاريخ الحركة القومية » جـ١ ص ٨٤ ، ويرد الأصل الفرنسي في « مراسلات نابليون » جـ٤ وثيقة ٢٧٢٣

Correspondance de Napoleon ler, Paris 1858 - 1870.

على أن للمنشور العربي صيغتين بينهما بعض الخلافات ، انظر بصدد ذلك دراسة د. احمد حسين الصاوي « فجر الصحافة في مصر » ـ دراسة في اعلام الحملة الفرنسية ـ القاهرة ١٩٧٥ ص ٩٢ ، واحال الى دراسة مفصلة حول الموضوع للدكتور مارسدن جونز قدمت ضمن الندوة التي عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عن الجبرتي بالقاهرة (١٦ ـ ٢٣ ابريل ١٩٧٤) .

٦ ـ انظر تفصيلاته في الرافعي ، المصدر السابق جـ١ ص ٢٢٣ .

٧ ـ اكتشف هذه الوثيقة المؤرخ علي بهجت ونشرها في مجلة المجمع العلمي بالقاهرة ، مجموعة ١٨٩٨ وعدد فبراير ١٩٠٠ ، واورد الرافعي كذلك في المصدر السابق (جـ٢ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٦) النص كاملا .

٨ ـ انظر في تفصيلات المجابهة بين الشعب والفرنسيين تاريخ الجبرتي في أكثر من موضع وكذلك كتاب الرافعي الذي أشرنا اليه . ولنا دراسة حول « سليمان الحلبي والمتيال كليبر » قدمت للمجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة ، سنة ١٩٦١م ٠

ونضيف هنا ان اهالي الحجاز ، وعلى الرغم من سياسة الوفاق بين الفرنسيين والشريف غالب ، اشتركوا مع اهل مصر في حرب الفرنسيين على النحو الذي اوضحه الجبرتي جـ ٣ ص ٤٤ ٠

٩ ـ احمد السباعي « تاريخ مكة » ـ دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ـ ط٠ ثانية ، مطابع دار قريش بمكة سنة ١٣٨٥هـ ، جـ٢ ص ١٢٦ ومابعدها ٠ وقد فتشنا طويلا عن مخطوطة « افادة الانام » فلم نستدل عليها حتى الآن (وذكر لنا بعض اهل العلم في مكة المكرمة انها ربما كانت مما اقتناه الشيخ محمد سرور الصبان ٠ وقد اهديت مكتبته مؤخرا لفرع جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، ولاتزال في طور المراجعة والفهرسة) ٠

١٠ ـ انظر بحث د٠ احمد عبد الرازق محمد « كشاف بالوثائق الفرنسية في مكتبة جامعة القاهرة » ضمن كتاب « عبد الرحمن الجبرتي » دراسات وبحوث » ، باشراف د٠ احمد عزت عبد الكريم ٠ القاهرة سنة ١٩٧٦م ، « حافظة رقم ٢٠٦ :

٦ ـ ترجمة فرنسية لخطابين من شريف مكة الى الجنرال بوسيلج ، مؤرخة في ٤ فلوريال من السنة السابعة (٢٣ ابريل سنة ١٧٩٩) يسأله في ارسال بوسيلج بشأن البعثة المسافرة الى سيناء ، مؤرخة في سنة ١٧٩٩ » ٠

١١ ـ انظر في أمر تعيين امير الحج كتاب الرافعي سالف الذكر جـ١ ص ٢٦١ ، و جـ٢ ص ٤٨ ٠

١٢ ـ اشار البير جس في دراسته عن « تاريخ المطبعة في مصر » الى ان المنشورات كانت تطبع طبعتين ، واحدة لكي تلصق في الأماكن العامة والثانية لكي توزع في الشوارع :

Albert Geisse, " Histoire de L' Impremerie en Egypte " dans, " Bull. de L' Institut Egyptien, 5 eme serie, t. I, 1907.

١٣ ـ راعينا ان نسجل نص الرسائل التي بالعربية كما جاءت في الوثائق التي بين ايدينا ، ولم تدخلنا في بعض المواضع باضافة علامات تعجب بين الأقواس للفت النظر الى طبيعة الأسلوب الذي استعمل او للغلط المطبعي الذي وقع ٠

١٤ ـ عن كتاب عبد الرحمن الرافعي الذي ذكرناه من قبل ، جـ١ ص ١٣١ ، وان كان فيه ان بوسيلج كان يشغل منصب « مدير العدود » بالياء والصواب ، كما جاء في الجبرتي وفي نص المنشور انه بالياء ، واورد د٠ الصاوي ـ في دراسته التي ذكرناها من قبل ـ صورة القرار الذي اتخذ بتنحية بوسيلج (شكل رقم ٧٧) بطريقة غير مباشرة اذ نص القرار على انه « لم يبق مدير الحدود كمثل الاول » وعلى ان « الغزندار العام هو سيتوين استوه متعلق بالمداخيل قاطبة ، والمذكور يضبط ويكشف حسابات الدخول من اللم العمومي » اي ان مسئولية ادارة الشئون المالية آلت الى المواطن استيف Esteve (انظر عنه كتاب الرافعي الذي اوردناه ، جـ١ ص ١٣١) ، والعنوان الفرنسي للمنشور يبين في جلاء ان بوسيلج كان على راس الادارة العامة للمالية في مصر

L' Administration general des Finances de L' Egypte.

١٥ ـ عبارة (الوزير الشهير) لا ترد عند الجبرتي •

١٦ ـ في الجبرتي : بوسليك •

١٧ ـ في الجبرتي : همته

١٨ ـ الجملة من « فهذا ما نؤمله •• » حتى « •• الود والعبـــور » لا ترد في تاريخ الجبرتي •

١٩ ـ في الجبرتي : المراد

٢٠ ـ في الجبرتي : الا بمشقة علاج •

٢١ ـ في الجبرتي : لهم •

٢٢ ـ في الجبرتي : ويبيع •

٢٣ ـ في الجبرتي : تسليك الطرقات ، وتنجيع المطالب وتحصيل المرات •

٢٤ ـ في الجبرتي : معولا •

٢٥ ـ انظر عنه دراسة د• الصاوي التي ذكرناها ، ص ٢٠٧ ، وفيها انه « تيبو صاحب ، ابن حيدر علي ، سلطان ميسور بالهند ، وكان ممن قاوموا امتداد الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية ـ ١٧٥٣ ـ ١٧٩٩ » •

٢٦ ـ المراد : مسقط •

٢٧ ـ المراد : القنصل الفرنسي في المخا •

٢٨ ـ في الجبرتي : أصدرناها •

٢٩ ـ في الجبرتي : يضبف : والسلام •

٣٠ ـ في الجبرتي : « وقد وصل هذا الكتاب لمصر ، في ستة عشر يوما خلت من شهر ذي الحجة ، فيكون مدة وصوله من مكة المشرفة الى مصر ثمانية وعشرين يوما ، وانقضى هذا الشهر ، ولم يأت خبر صحيح عن فرنسيس الشام • وانقضت هذه السنة ، وما حصل بها من الحوادث التي لم يتفق مثلها ، ومن اعظمها انقطاع سفر الحج من مصر ، ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة ، وهذا لم يقع نظيره في هذه القرون ، ولا في دولة بني عثمان ، والأمر لله وحده » •

وانظر في تحليل المنشور دراسة د• الصاوي التي مرت بنا ص ١٠٠ حيث يقول ان « ان المنشور غير مؤرخ ، ولكن ختامه يدل على انه صدر في اواخر شهر ذي الحجة سنة ١٢١٣ (النصف الثاني من مايو ١٧٩٩) ، وقد ذكر الجبرتي نصـــه في حوادث شهر ذي الحجة ايضا ، دون تحديد اليوم » وواضح ان المنشور يحمل تاريخا هو ١٨ من شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣ كما علق عليه باسهاب ص ٢٠٦ •

• رسائل نابليون الى الشريف غالب نقلناها عن :

Oeuvres de Napoleon Bonaparte.

tome deuxieme, Paris, C. L. F. Panckoucke editeur, MDCCCXXI (1821).

ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٥٧ ، ٩٠ (على التوالي) •

اما الرسالة الموجهة من مينو للشريف غالب فتجيء في كتاب :
François ROUSSEAU, " Kléber et Menou en Egypte depuis Le depart de Bonaparte
(Paris 1900).

ص ٣٧٨ وما بعدها .

٣١ - ايل دي فرانس Ile de France . احدى جزر المحيط الهندي ، وكانت خاضعة لفرنسا . وهي ما يعرف الآن باسم جزيرة موريشيوس .

٣٢ - في النص الفرنسي : Medin وفي ، تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية ، ط٢ ، القاهرة ١٩٤٩م ص ٥٠ :
" Medin او Medino هي اصغر عملة مصرية في حجم العملة الفرنسية ذات الخمسة وعشرين سنتيما ولكنها اقل منها سمكا ، وطول نصـــف قطرها خمسة عشر ملليمترا ، وتزن ٧٣ درهمة او ٢٢ر٧٦ جراما من الفضة ، يحمل احد جانبيها اسمها فقط او اسم السلطان ، ويحمل الجانب الاخر ، ضرب في مصر ، والسنة التي ضربت فيها . راجع في ذلك :
Descrip. de L' Egyp. 2 eme ed. T. 16 P. 320 et 422.

وعملة ، ميدان او مدينو تسمى ميدي او مؤيدي ، ويذكرها الجبرتي بقوله (نصف فضة) راجع في ذلك شفيق غبريال ، مصر عند مفترق الطرق ، هامش ص ١٢ مجلة كلية الآداب مجلد ٤ جـ ١ سنة ١٩٣٦ . .

٣٣ - Aboukekir هو ابو بكر باشا والي مصر (وانظر في عبـــد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة الوطنية جـ١ ص ٤٢٣ ، رسالة نابليون الى ابي بكر باشا والي مصر قبل رسو العمارة الفرنسية بالاسكندرية .) وليست هذه هي المرة الاولى التي تجيء فيها الأسماء العربية على صورة مغلوطة او مخالفة لأسلوب الرسم الكتابي المتـــداول لها الآن . وقد رأيناهم في هذه الرسائل يكتبون Hygia 3 دلالة على الحجاز ، وجاء اسم الشريف غالب في الرسالة التي وجهها اليه الجنرال منو وقد رسم هكذا Ghralib كما كتبت مكة المكرمة في بعض الأحايين Mekke بدلا من Mecque . وانظر كذلك الرسالة الثانية ، حيث تجد فيها بعض كلمات فرنسية (مثل
(differens negocians
كتبت على نحو مخالف للمألوف . وقد ابقينا عليها كما هي دون تغيير ، وهو ما فعلناه كذلك بإزاء النصوص العربية التي حافظنا على أسلوبها بدون اي تغيير .

د. محمد زكريا عناني
كلية الشريعة ـ مكة المكرمة

Lettre 1 : Au Caire, Le 8 Fructidor an 6 (25 août 1798)

Au Schérif de le Mecque

En vous faisant connaitre l' entrée de l' armée française en Egypte, je crois devoir vous assurer de la ferme intention où je suis de protéger de tous mes moyens le voyage des pélerins de Mecque : les mosquées et toutes les fondations que la Mecque et Médine possédent en Egypte, continueront à leur appartenir comme par le passé. Nous sommes amis des musulmans et de la religion du prophète; nous désirons faire tout ce qui pourra vous plaire et être favorable a la religion.

Je desire que vous fassiez connaitre partout que la caravane des pélerins me souffrira aucune interruption, qu' elle n'aura rien à craindre des Arabes.

Bonaparte "

Lettre "2" :

Au Caire, le 10 Fructidor an 6 (27 août 1798)

Au même

Je m' empresse de vous faire connaitre mon arrivée, à la tête de l' armée française, au Caire, ainsi que les mesures que j'ai prise pour conserver aux saintes mosquées de la Mecque et de Médine les revenus qui leur étaient affectés. Par les lettres que vous écriront le divan et les differens negocians de ce pays, vous verrez avec quel soin je protège les imams, les schérifs et tous les hommes de loi; vous y verrez également que j' ai nommé pour emir - adji Mustapha - Bey, Kiaya de seid Aboukekir (33), pacha gouverneur du Caire, et qu'il escortera la caravane avec les forces qui la mettront à l' abri des incursions des Arabes.

Je désire beaucoup que, par votre réponse vous me fassiez connaitre si vous souhaitez que je fasse escorter la caravane par mes troupes, ou seulement par un corps de cavalerie de gens du pays; mais dans tous les cas, faites connaitre à tous les négocians et fidéles que les musulmans n' ont pas de meilleurs amis que nous, de même que les schérifs et tous les hommes qui emplorent leur temps et leur moyens à instruire les peuples n' ont pas de plus zélés protecteurs, et que le commence non seulement n' a rien à craindre mais sera spécialement protégé.

J' attends votre reponse par le retour de ce courrier.
Vous me ferez connaitre également les besoins que nous pourriez avoir, soit en blé, soit en riz, et je neillerai a ce que tous soit envoyé.

Bonaparte "

Lettre 4 :

Au Caire, Le 6 pluvoise an 7 (25 janvier 1799)

Au Sultan de la Mecque

J' ai reçu la lettre que vous m' avez écrite, et j' en ai compris le contenu. Je vous envoie le reglement que j' al fait pour la douane de Suez, et mon intention est de le faire exécuter ponctuellement.

Je ne doute pas que les négocians de l' Hygiaz ne voient avec gratitude la diminuation des droits que j' ai faite, pour le plus grand avantage du commerce, et vous pouvez les assurer qu' ils jouiront ici de la plus ample protection.

Toutes les fois que vous aurez besion de quelque chose en Egypte, vous n' avez qu' a me le faire savoir, et je me feral un plaisir de vous donner des marques de mon estime.

Bonaparte "

Lettre 7 :

Au Caire, le 12 messidore an 7 (30 Juin 1799)

Au Schérif de la Mecque.

Au nom de Dieu clément et miséricordieux; il n' y a pas d' autre Dieu que dieu, et Mahomet est son prophete.

J' ai reçu votre lettre, et j' en ai compris le contenu.

J' ai donné les ordres pour que tout ce qui peut vous persuader de l' estime et de l' amitié que j' ai pour vous, soit fait.

J' espère qu' à la saison prochaine vous ferez partir une grande quantité de bâtimens chargés de café et de marchandises des I ndes : ils seront toujours protégés.

Je vous rémercie de ce que vous avus avez passer mes lettres aux Indes et à l' Ile de France; faites - y passer celles - ci, et envoyez - mois la réponse.

Croyex à l' estime que j' ai pour vous, et au cas que je fais de votre amitié.

Bonaparte "

Au Caire, le 12 messidor an 7 (30 Juin 1799)

Au Commandant de l' Ile de France

Je vous prie, citoyen - commendant, de faire payer au schérif de la Mecque la somme de 94,000 fr., que le payeur de l' armeé tire en trois lettres de eharge sur le payeur de l' Ile de France, et dont la trésorerie nationale tiendra compte.

J' ai pensé devoir me servir de ce moyen pour avoir un canal sûr pour correspondre avee vous, malgré les croiseurs qui infestent la mer Rouge.

Je vous salue.

Bonaparte "

Lettre 8 :

Menou au Cherif de la Mecque

(Moniteur Universel, 15 hiv, an Ix) a frimaire an

Ix (30 nov. 1800)

Au nom de Dieu elément et miséricordieux

Il n' y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son prophète. Abdullah Jacques Menou, général en chef de l' armée française, actuellement en Egypte, et y représentant le gouvernement de la republique française.

A l' illustre célébre, le plus grand parmi les plus grands, le successeur de son agent le prophéte de Dieu, rempli d' esprit, de sagesse, de farce, toujours victorieux, le prince Ghalib, grand ehérif des deux villes saintes, possesseur de la plus belle partie de l' Arabie.

I llustre prince et ami, après m' être informé de votre santé et vous avoir souhaité tout le bonheur que vous meritez

et que vous pouvez désirer, je m' empresse de vous faire savoir que j' ai étè nommé au commandement général de l' armeé française actuellement en Egypte, après l' horrible assassinat commis sur la personne de votre ami le général en chef Kléber, mon prédécesseur. C'est le premier consul de la république française le plus célèbre parmi les guerriers européens, votre ancien ami Bonaparte, qui m' a nommé a sa place.

Je m' en félicite puisqu élle me met à portée de correspondre avec le plus saint de tous les princes qui suivent la vraie croyance, qui adorent Dieu et qui respectent son prophète.

Illustre prince, Bonaparte m' a charge de renouveler avec vous tous les traités d' amitié. Je m' empresse donc de vous faire savoir que vos sujets peuvent venir sans aucune crainte à Suez. Dorénavant aucune avanie, aucune vexation, ne seront commises contre les négociants, J'ai aboli tous les anciens droits pour n' en créer qu' un seul et unique, et si quelque Français, ou tout autre employé dans les douanes de Suez s' avisait de prendre un seul médin au delà de ce que j' ai fixé, il perderait a l' instant la vie. J' ai fait tout cela en votre considération, illustre prince. Je voulais cette année vous envoyer, comme par le passé, la caravane des pélerins de toutes les nations qui vont visiter les deux cités saintes. Je voulais vous envoyer le tapis qui doit couvrir la sainte Caaba, mais les circonstances de la guerre me l' ont pas permis. L' année prochaine, J' espére être plus hereux. Je choisir ai pour Emir Hadgi un musulman qui soit digne d' une si honorable fonction. Je feral enfin tout ce qui sera nécessaire pour prouver, Illustre prince, combien la republique française, désire être en bonne intelligence avec vous.

Je m' estime hereux d' être son organe, puisqu' elle me met à même de vous offrir les assurances bien sincéres d' une profonde estime.

Je prie Dieu et son prophète de vous accorder de longs jours une prospérité sans interruption et des victoires sans nombre sur vos ennemis.

P. - S. - Je vous envoie, illustre prince un tarif des douanes que J' ai établies dans toute l' Egypte. Vous y verrez que les droits sont bien moins considérables à Suez qu ils n' étaient autrefois. ".

مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حَمْلَتِهِ على الشرق (إضافات)

د. محمد زكريا عناني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة

هذه إضافات على موضوع نشرناه بـ «الدارة» منذ سنين، عرضنا فيه لمجموعة من الوثائق العربية والفرنسية محورها هذه الرسائل التي بعث بها بونابرت – إبان حملته على الشرق – هو ورجالات جيشه إلى الشريف غالب بن مساعد، حاكم الحجاز آنذاك، وقلنا في صدر هذا الحديث القديم:

«مهما اختلفت الأحكام حول الحملة الفرنسية على مصر والشرق (١٢١٣–١٢١٦هـ ١٧٩٨–١٨٠١م) فالذي لا ريب فيه أن هذه الحملة أثرت تأثيرا في الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الشرق، وكانت عاملا فعالا في القضاء على نفوذ المماليك، وفتح المجال أمام محمد علي لكي يؤسس دولة مصر الحديثة.

ومهما قست آراء المؤرخين وهي تتناول دور الشريف غالب بن مساعد، فالثابت أن الرجل كان في عصره قوة لا يستهان بها...[1]، ونقلنا ماجاء عنه في عجائب الآثار في حوادث سنة ١٢١٣هـ:

«ومات الأجل المكرم الشريف غالب بسلانيك، وهو المنفصل عن عمارة مكة وجدة والمدينة، وما انضاف إلى ذلك من بلاد الحجاز، فكانت إمارته نحوا من سبع

وعشرين سنة، فإنه تولى بعد الشريف سرور، في سنة ثلاث ومائتين وألف، وكان من دهاة العالم. وأخباره ومناقبه تحتاج إلى مجلدين، ولم يزل حتى سلط الله عليه بأفاعيله هذا الباشا (يقصد محمد علي) فلم يزل يخادعه حتى تمكن منه، وقبض عليه، وأرسله إلى بلدة سلانيك، وخرج من سلطته وسيادته إلى بلاد الغربة ونهبت أمواله، ومات أولاده وجواريه، ثم مات هو في هذه السنة»[٢].

وتضمنت نشرتنا السابقة ثماني رسائل فرنسية وعربية استقيناها من مصادر متنوعة هي:

● مجلد محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس يحمل عنوان: Recueil des arrêtés et Proclamatiuons de lautorité Française en Egypte pendant l'occupation «مجموعة القرارات والبيانات التي أصدرتها السلطة الفرنسية في مصر في أثناء الحملة الفرنسية».

● عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي.

● إفادة الأنام لعبدالله غازي.

● أعمال نابليون بونابرت Oeuvres de Napoleon Bonaparte

● روسو: كليبر ومينو في مصر منذ رحيل بونابرت F. Rousseau: Kleber et Menou en Egypte depuis le départ de Bonaparte

الرسالة الأولى

وترد في نصها الفرنسي ضمن «أعمال نابليون»، وقد كتبت في ٢٥ اغسطس سنة ١٧٩٨م (ربيع الأول من سنة ١٢١٣هـ) فإذا علمنا أن الفرنسين نزلوا غرب الإسكندرية في ١٨ محرم سنة ١٢١٣هـ (٣ يوليو ١٧٩٨م)، وأن نابليون انتصر على المماليك في واقعة إمبابة (معركة الأهرام) في ٧ صفر ١٢١٢هـ (٢١ يوليو ١٧٩٨م) عرفنا أن نابليون بونابرت بعث برسالته هذه للشريف غالب بعد دخوله القاهرة بنحو شهر من الزمان، وفي هذا دليل على مدى الأهمية التي أولاها لهذا الأمر، فقد كانت تحيط به متاعب شتى، منها – على سبيل المثال – تحطم أسطوله في

موقعة «ابوقير» (أول أغسطس سنة ١٧٩٨م) واشتعال المقاومة في انحاء متعددة، ورغبته في إحداث تنظيمات إدارية عاجلة يسير بها شؤون مصر:

ترجمة نصر الرسالة:

«القاهرة، في ٨ فريكتيدور من العام ٦ (٢٥ اغسطس ١٧٩٨م).

إلى شريف مكة

إنني إذ أخطركم بدخول الجيش الفرنسي مصر اعتقد انه من الواجب ان أطمئنكم على عزمي الوطيد على ان احمي بكل السبل رحلة الحجيج إلى مكة، وستظل المساجد وكل الأوقاف التي لمكة والمدينة في مصر في حوزتهما كما كانت في الماضي. إننا أصدقاء للمسلمين ولعقيدة الرسول، ونحن راغبون في القيام بكل ما من شانه ان يسركم ويكون في صالح الدين.

وإني لارغب في ان تعلنوا في كل مكان ان قافلة الحج لن تعاني من اي توقف، ولن تخشى شيئا من الاعراب.

بونابرت»

★★★

الرسالة الثانية

وتأتي هذه الرسالة بعد يومين فحسب من تاريخ كتابة الرسالة السابقة، وتحمل تفصيلات أكثر عن طبيعة العلاقات بين الشريف غالب وبونابرت:

ترجمة نص الرسالة:

«القاهرة في ١٠ فريكتيدور من العام ٦ (٢٧ اغسطس ١٧٩٨م)

إليه نفسه

«إنني ابادر بأن اعرفكم بوصولي على راس الجيش الفرنسي للقاهرة، وبالإجراءات التي اتخذتها للحفاظ على ما للمساجد المقدسة في مكة والمدينة من الدخول التي كان مستوجبة لها.

وسيبين لكم، عن طريق الرسائل التي ستصل إليكم من الديوان ومن مختلف التجار في هذا البلد، مدى الرعاية التي أكرسها لرعاية العلماء والأشراف وكل رجال الشريعة. وسترون كذلك أني عينت كذلك مصطفى بك(١١). كتخدا سيد أبي بكر باشا وحاكم القاهرة، وسيقوم بمرافقة الموكب مع قوة تكفل لها الحماية من غارات الأعراب.

وإني لجد راغب في أنكم، عن طريق ردكم، تعرفوني عما إذا كنتم تودون أن تقوم فرق تابعة لي بحماية القافلة، أو يكتفي بفيلق خيالة من أهل البلاد، ولكن في جميع الأحوال بلغوا جميع التجار والمؤمنين بأنه لا يوجد للمسلمين من هو أكثر مني صداقة لهم، وكذلك للأشراف وكل الذين يكرسون وقتهم وطاقاتهم لتعليم الشعب، فليس لهم أشد غيرة على حمايتهم، وبأن التجارة لن تكون فحسب بمنأى عن الخطر، بل ستكفل لها حماية خاصة. وبانتظار ردكم مع رجوع البريد.

لتبلغني كذلك عن الضرورات التي تحتاجون اليها من قمح أو أرز وساهتم بأن ترسل كلها إليكم.

بونابرت »

★★★

الرسالة الثالثة

وهذه الرسالة بعث بها الشريف غالب بن مساعد شريف مكة إلى نابليون بونابرت. ولا تحمل الرسالة تاريخا، ولكن محتواها يدل على أنه من الممكن اعتبارها بمثابة رد على الرسالة السابقة.

والنسخة التي نقدم نصاً لها مطبوعة بالقاهرة، بالمطبعة الوطنية، أي بتلك المطبعة العربية التي حملها الفرنسيون معهم. ولعل نسخاً من هذه الرسالة، بحجمها هذا الذي طبعت به (٢١ × ٢٩سم) أو بحجم أكبر(١٢)، علقت في بعض المواضع الرئيسة بالقاهرة، ليطلع عليها الأهالي ويظهر الفرنسيون على ضوئها، في مظهر الحريصين على إقامة الشعائر الدينية، ويبين أنهم على علاقات طيبة مع شريف مكة.

وطبع في أعلى الرسالة بالحرف الغليظ.

Lettre du Cherif de la Mekke au Général en chef Bonaparte

(خطاب من شريف مكة إلى القائد العام بونابرت)

وفي ذيل الوثيقة:

Au Kaire, de l'imprémerie Nationale

(القاهرة، بالمطبعة الوطنية).

نص الرسالة(١٣):

«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين»

محل الخاتم ومكتوب في وسطه عبده غالب مساعد ١٢١٣ من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة، إلى أمير الجيوش الفرانساوية بونابارته (!) ساري عسكر الكبير في الأقاليم المصرية، يجري الله الخير على يديه.

بعد السلام عليكم، فقد وصل كتابكم، وفهمنا لحامل ماحواه خطابكم، وما ذكر عن إلباسكم لمصطفى أغا كتخدا والي مصر إمارة حجاج المسلمين فهو عين الصواب، وذكرتوا بأنكم عازمين على ارسال حجاج المسلمين إلى بيت رب العالمين، بطلبا أمنيتهم من طرفنا، فلا مانع لهم، ولهم أمان الله من جميع المخاوف، ولا صاد لهم عن بيت الله وزيارة رسول الله، ولا جعل الله الكعبة البيت الحرام إلا لأداء فريضة حج الإسلام فيجون كعادتهم يحجون وهو آمنون، وما ذكرتوا عن تمشيت بن التجار، فلا يخفاكم أن المزكورين (!) غير آمنين الغوايل التي راواها (!) في الزمان السابق. فإذا ردتوا ذلك أرسلوا لهم ما يومن خواطرهم وبينوا لهم ما تأخذوه من العشور على بنيانهم وأموالهم فإذا فعلتوا فهم يصلون إليكم، وبخلاف ذلك لا يأمنون.

هذا ما عنى لنا به التسطير، وما ذكرتوا من تعرض العربان للحجاج المسلمين فلا يصير ذلك بحول الله وقدرته وهمتكم العالية.

والسلام على من اتبع الهدى»

***

الرسالة الرابعة

وترد ضمن «أعمال نابليون»، وهي الرسالة الوحيدة التي توجه باسم «سلطان مكة» لا إلى «شريف مكة»، ولسنا نملك النص العربي منها حتى يمكن، على ضوئه، الجزم بدلالة هذا التغيير، والأبعاد السياسية التي تنطوي وراء مثل هذا التعبير.

ترجمة نص الرسالة:

«القاهرة، في ٦ بلو قواز من العام ٧ (٢٥ يناير ١٧٩٩)

إلى سلطان مكة

لقد تسلمت الرسالة التي كتبتموها إلي، وفهمت محتواها، وأرسل لكم اللائحة التي قمت بوضعها لجمرك السويس، وفي عزمي أن يتم تنفيذها بدقة.

ولا يخالجني الشك في أن تجار الحجاز سيلحظون بامتنان مدى التناقص الذي طرأ على الرسوم الجمركية، وذلك من أجل الصالح العام للتجارة، وتستطيع أن تطمئنهم بأنهم سيحظون هنا بموفور الحماية.

وفي جميع الحالات التي تحتاج فيها لشيء من مصر، ما عليك إلا أن تعرفني، وسيكون مدعاة لسروري أن أعبر لكم عن دلائل تقديري.

بونابرت»

***

الرسالة الخامسة

وهي إحدى الرسائل القليلة التي وصل إلينا نصها بالعربي، ولم ترسل إلى نابليون بونابرت، بل إلى بوسييلج Poussielgue أحد كبار رجال الاقتصاد الذين صاحبوا الحملة، حيث أصبح «مراقبا لنفقات الجيش، وعهد إليه نابليون بإدارة الشؤون المالية، وكان يثني عليه، لكنه غضب عليه بعد عودته إلى فرنسا لما أطلع على رسائله إلى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته. ولما عاد إلى فرنسا أهمله نابليون(١٤).

ويرد اسمه في هذا النص على أنه «بوسيلك، مدير الحدود العامة بمصر»، والنص نفسه يورده الجبرتي في عجائب الآثار، ضمن أخبار سنة ١٢١٣، مسبوقا بقوله:

«وفيه حضر إلى السويس تسعة داوات بها بن وبهار وبضائع تجارية، وفيها لشريف مكة نحو خمسمائة فرق بن، وكانت الإنجليز منعتهم الحضور، فكاتبهم الشريف فأطلقوهم بعد أن حددوا عليهم أياما مسافة التنقيل والشحنة، وأخذوا منهم عشوراء. وسامح الفرنسيس ابن الشريف من العشور ؛لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس بنحو عشرين يوما، طبعوا صورتها في أوراق وألصقوها بالأسواق، وهي خطاب لبوسيلك، وصورته، من الشريف غالب بن مساعد، شريف مكة المشرفة إلى عين أعيانه...» إلخ.

والنص الذي ألصق بالأسواق طبع على ورق كبير الحجم (٤٠ × ٢٩سم)، وكله بالعربية، باستثناء الشعار الذي في أعلا المنشور، والذي يتضمن بالفرنسية: «الجمهورية الفرنسية».

ويتضمن المنشور بعض عبارات دعائية، توضح كيف أراد الفرنسيون أن يستغلوا صلاتهم بالشريف غالب - التي كانت في جوهرها صلات تجارية - لاجتذاب الرأي العام إليهم، وهذه العبارات نصها:

«صورة مكتوب حضر من مكة المعظمة خطابا من سلطان مكة مولانا الشريف غالب، أرسله لمصر إلى الدستور المكرم والمشير المنخصم (كذا) الوزير بوسيلك مدير الحدود العامة بمصر حالا زاده الله جلالا واقبالا دل مضمونه، وأوضح مكنونه على صحة مصادقة الشريف للدولة الفرنساوية، ومزيد مودته لهم مع صدق النية، بخلاف ما يظنه سفها الرعية، وعرفنا من ذلك أن حضور الجماعة قطاع الطريق على القصير من غير اطلاعه، وبغير إذنه، فجزاهم ما حل بهم حيث تخطفهم الطير، وقد هلكوا في الصعيد، بعسكر الفرنساوية، أهل الشجاعة والمحاربت (!) القوية، الأسدية، وحاصل مكتوب الشريف للوزير لأجل ما يعتبر به الكبير والصغير، ويسلموا إلى مولاهم في سائر المقادير، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وهو اللطيف الخبير».

نص الرسالة:

«بيان لفظ المكتوب

من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة إلى عين أعيانه وعمدة إخوانه الوزير الشهير(١٥) بوسيلك(١٦)، مدير أمور جمهور الفرنساوية، ممهد بنيان السياسة بسداد همه(١٧) الوفية، وبعد

فإنه وصل إلينا كتابك، وفهمنا كامل ماحواه خطابك، مما ذكرت من وصول قنجتنا. وأنك ارسلت هجانا برفع العشور عن البن، وبذلت الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه، فهذا ما نؤمله من حميد الحركات، ووفاء المصادقات، فأوجب ذلك عندنا وافر السرور، ومزيد الود والحبور(١٨)، وتأملنا في كتابك، فوجدنا من صدق مقاله ما أوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد على تموه غياهب الشك في كل مراد(١٩).

وواجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة، وشهلنا الآن إلى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الأوان، ولا أمكن لنا خروج هذا المقدار إلا بأشد علاج(٢٠)، مع سلب اطمينان التجار لأن كثرة أكاذيب الأخبار أوجبت لديهم(٢١) مزيد الارتياب والأعذار بحيث ما بيننا وبينكم إلا العربان المختلفة رواياتهم على ممر الأزمان، وأما نحن فقد جاءتنا منكم قبل هذا المكاتب التي أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والأكاذيب فخاطرنا مستقر بالطمانينة من قبلكم لما ثبت عندنا من ألفاظ كتبكم.

والمطلوب في حال وصول كتابنا إليكم إرسال عسكر من لديكم إلى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس ويصلوا بالأبنان إلى مصر، ويبيعوا(٢٢) التجار ويزول وقف الأسباب والباس، وتهتموا في رجوعهم كذلك قبل باوان ليكون ذلك سببا في كثرة وفود الأبنان، وعند رجوعهم بعد المبيع من مصر إلى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق؛ لأن هذه المرة ما أرسل إليكم هذا المقدار إلا تجربة واستخبار من أعيان التجار، وعند مشاهدة الإكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون إليكم نافيس أموالهم ويهرعون بالجلب لطرفكم، ويزول الريب عن قلوبهم.

ونـرجـو(!) الله بهمتنا تسلك الطـرقـات، وتنجح المطـالب وتحصل الميراث(٢٣) بأحسن مما كـانت من الأمان، وأعظم ممـا سبق في غابـر الأزمان، ويكثـر بحول الله الوارد إليكم من الأسبـاب الحجازية، وكـذلك لنا بن في المراكب، فما مولنـا منكم القا النظر على خدامنا، وبذل الهمة على ما هو طـرفنا. وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الإكرام في كل مرام.

ولا يخفـاك أنه ورد علينـا قبل بأيام كتـب من طرف أمير العسكـر الفرنسـاوي محبنا بونابارته فما كان لنا منها فتـأملناه، وصار إليه الجواب توصله إليه، وما كان منهـا معـول(٢٤) في إرسـالـه علينـا إلى نـواحي الهنـد وابن حيـدر(٢٥) وإمـام مسكت(٢٦) ووكيلكم الذي في المخـا(٢٧) فجميعها صدرنـاها(٢٨) من طـرفنا مع من نعتمده إلى أربابها.

وإن شاء الله عن قريب يأتيكم الجواب(٢٩).

تحريرا في ١٨ شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣»

ويتلوه، في نفس المنشور:

«وقد وصل هـذا الجواب لمصر(٣٠) في ١٤ شهر الحجـة(!) فيكون مدة وصـولـه من مكة المشرفـة لمصر ثمانية وعشرين يوما، وبعـد وصول هذا الكتاب بسبعـة أيام وصلت مكاتيب البشـارة الخاص والعام بدخول إحدى عشر داوا إلى بنـدر السويس بسلام، فحصل بهذا الخبر الخزي للكذابين وبطل كلام المجـرمين فالزموا الأدب مع الله وارضوا بأحكام الله والسلام عليكم ورحمة الله.

طبع في مطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة».

★★★

الرسالة السادسة

وهذه الرسالة ورد نصـها في مخطوطـة كتاب «إفادة الأنام» – ولم نعثر بعد عليه – ونقلناها عن كتاب الأستاذ أحمد السباعي «تاريخ مكة» الذي قدم لها بقوله:

«نابليون بونابرت(!) يكتب لغالب:

وعلى أثر استقرار الفرنسيين في مصر كتب قائدهم الأعلى نابليون لونابرت(!) يعرض على الشريف غالب في مكة بعض الاتفاقات التجارية، وينذره إذا حاول قطعها، فكتب إليه الشريف غالب الخطاب التالي»:

وبعد أن أورد نص الرسالة أضاف «ملاحظة» هي:

«كان عنوان غلاف الكتاب:

(عين أعيانه وعمدة أخدانه بونابرته، أمير الجمهور الفرنساوي بمصر القاهرة حالا ٢ ٨٦٤(؟) وكان الختم مكتوبا في وسطه:

(عبده غالب بن مساعد سنة ١٢١٣)

وكتب في أعلا الخطاب (إسنادي إلى الله)

وفي أسفله (اعتمادي على الله)

وفي إحدى الجانبين (مرادي رضا الله)

وفي الجانب الآخر (اعتقادي في الله)

نص الرسالة:

«من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة، إلى قدوة أعيان (أقرانه) الدولة الفرنساوية أو عمدة أركان إخوانه المشهور بسداد همته الوافية بونابارته، سر عسكر ومقدم كبرائهم في كل مصدر، وبعد

فداعي التحرير وموجب التسطير وصول كتابك وإحاطة علمنا لما حواه خطابك وما ذكرت من وصول كتبنا وتصفح مضمونها، وإرسال القول من طرفكم بما يوجب تبيان حدود رسومات أموال التجار في البلاد المصرية، وجريان سماحنا لخمسمائة فرق إلى آخر ما شرحتموه من الكتاب لصريح وثاقه صدق الاعتماد في كل مصدر من جهاتنا الحرمية، ومطلوب منا إيصال الكتب المرسلة على يدنا لمحلنا، أحدها لولد حيدر تيبو سلطان، والثاني لإمام مسكت والثالث لوكيلهم بالمخا، فقد وصلت إلينا وأرسلناها بيد معتمد من طرفنا لأصحابها طبق المرام، وإن شاء الله عن قريب يجيئكم الجواب، وما كان من همتنا في جلب التجار إلى الديار المصرية،

واعتمدنـا لخطكم وأكيد قولكم، فنرجـو الله ما نعتمد خـلافه، وقد كان تجار بنـدرنا المعمـور في روع من الأكاذيب المختلقـة على أموالهم وصـدورها لطـرفكم وحين ورد منكم هـذا القول الأكيد كـافة تجارنـا في أسباب الجلب إليكـم، وتعهد لهم كامـل ما توهمت به ضمائرهم من ضمان الأمـان على أموالهم، وإنما كان الانتظار منـا لوفود من جهتنا ورسولنا المصدر إليكم.

فلما كـان اليوم السـابع من شهرنـا هـذا وصل المذكور إلينـا وبه كتـاب وكيلك المعتمد الوزير بـرسيلك (كذا) المعلن بمزيد الالتفات لوفادتنا إليه وهمته في أمور من صلاتنا من البن وغيره وهي خمسة مراكب مشحونة من طرف تجارنا وفيها مأمور هـو مسطور أعـلاها بـاسمنا فهـو لنا وصحبتهم منحتنـا ومراسلينـا بالسطـور، فالمطلـوب عند وصـولهم إلى السويس أن ترسلـوا من طرفكم عسكـر يحافظون على الأبنان إلى أن تصلكـم إلى مصر، ويبيعونها، فعند إعـادتها بأثمانها كذلك تشيعـوهم بالعساكـر إلى أن يدخلوا سفائنهم، حـرصا عليهم من خطر الطريق، فإننـا ما أمكن تأمين التجار على هذا المقـدار إلا بأشد علاج وما صدر هذا القـدر إلا بصدد التجربة من شدة ما تأكـد عليهم لديهم من توهم الأكاذيب المتناثرة، لأنـه ما بيننا وبينكم إلا العربـان، فإذا شاهـد التجار مـزيد الاعتنـاء بأموالهم، ومحافظـاتها من مخاطرات الأسفار والاحتفـال بإكرامهم هـرعو بـالجلب إلى مصر في كل آن، ونرجـو بهمتنا أن نسلك الطرقـات وتنجح الميرات بأحسن ما كـان من الأمان، ويكثـر الوارد إليكم من الأسباب الحجـازية، لا سيمان عند وجدان صـدق مقالكم تتكون أسبـاب صداقتكم فالآن مأمولنا منكم إلقاء النظر على ما هـو لنا من البن حسب ما هو مرقوم اسمنا في ظهـور (فروقنـا) والالتفات لخدامنـا، وكذلك لا يخفـاكم أن لنا عـوائد ومرتبـات في مصر، مع سماح الخمسمائة الفرق دراهم نقدية، وهنا بيان مـا هو لنا بالديوان المالي في مصر، الواصلة إلينا صحبة الحاج مع كاتب الصرة وصيرفها:

عن الصرة الرومية	٥٤٠٠٠٠
ثمن سرس وشطرات	١٧٠٩١٧
معتاد بني حسين وبني تراب	٤٨٧١٧
عن أشراف بني تراب بدفتر متقاعد	١٩٥١٢

عن مرتب وقف الحشيشة الكبرى	١٢٥٣٣٥
عن وقف المحمدية بالثلث بدفتر متقاعد	٨٣٣٣٣
حوالة كاتب الحرم بمكة من اربطة	١٧٥٨١١
عن صرة شريف مكة إنماء الدولة العلية	١٠٠٠٠٠٠
منها دواوين	٣١٦٣٦٧٩
ولنا في وقف الجامكية المستجدة يسلمها لنا أمين الحاج دواوين	٥٠٨٥٠٠

عنها ريال فرانسة ٥٦٥٠

حرر في ١٨ شهر ذي القعدة ١٢١٣هـ.

★★★

الرسالة السابعة

وترد ضمن «أعمال نابليون بونابرت» وكتبت في ٣٠ من يونية ١٧٩٩ اي قبيل رحيل نابليون بأقل من شهرين (إذ إنه ارتحل في ٢٣ من أغسطس إلى فرنسا، متخفيا).

ترجمة نص الرسالة:

«القاهرة في ١٣ ميسيدورمن العام ٧(٣٠يونيه ١٧٩٩).

إلى شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم ،لا إله إلا الله ،محمد رسول الله ، لقد تسلمت رسالتكم، وفهمت محتواها ،وقد أصدرت أوامري بحيث يعمل كل ما من شأنه أن يقنعكم بمدى الود والتقدير الذي أحمله لكم .

ونأمل أنكم في الموسم القادم تقومون بإرسال عدد كبير من السفن المحملة بالبن وبضائع الهند . وسيكفل تأمين هذه السفن .

وإني لأعرب لكم عن شكري لقيامكم بإرسال ما بعثت من رسائل للهند والى فرنسا .أوصلوا هذه الرسالة كذلك،ووافونا بالرد .

وثقوا في التقدير الذي أكنه لكم ،وفي الاعتبار الذي أحمله لصداقتكم

بونابرت »

ويرد بعدها في نفس المصدر نص يتصل بالشريف غالب هو :

«القاهرة في ١٢ميسيدور من العام ٧(٣٠يونية ١٧٩٩) .

إلى قومندان «ايل دي فرانس (٣١)

ارجو أيها المواطن القومندان ،أن تقوموا بدفع مبلغ ٩٤٠٠٠فرنك إلى شريف مكة، وهو المبلغ الذي سيقوم أمين الصرف بالجيش بسحبه ،بموجب ثلاث رسائل تحويل على أمين الصرف في ايل دي فرانس ،كما ستقوم الخزانة الوطنية باتخاذ اللازم .

«وقد اعتقدت أنه من الواجب أن استعمل هذه الطريقة لكي يكون لنا قناة موثوق بها لكي نتراسل معكم على الرغم من الطرادات [الإنجليزية]التي تعيث في البحر الأحمر فسادا.

ولكم تحياتي

بونابرت »

★★★

الرسالة الثامنة

ويرد نصها الفرنسي في كتاب فرانسوا روسو الذي يحمل عنوان «كليبس ومنو» ويضم الوثائق التي تتعلق بالحملة في ظل خليفتي بونابرت في مصر

وتتميز هذه الرسالة بمدى غلبة روح الملق عليه ،والرغبة الشديدة في التأثير على الشريف غالب ؛ لأن الجنرال منو كاتب هذه الرسالة كان ينتهج سياسة استعمارية ترمي الى محاولة البقاء في مصر ،على العكس من نهج سلفه كليبر، الذي ادرك أن من الخير تصفية الحملة والرحيل وفقا لشروط مشرفة .

ترجمة نص الرسالة:

«من منو إلى شريف مكة

(نقلا من مينيتور يونيفرس، بتاريخ ١٥ نيفوز من العام ٩) ٩ فريمير من العام ٩ (٣٠ نوفمبر ١٨٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله

من عبدالله جاك منو، القائد العام للجيش الفرنسي (الموجود) حاليا في مصر، ممثلا فيها حكومة الجمهورية الفرنسية.

إلى الشهير ذائع الصيت ،الأعظم بين الأعاظم ،خليفة رسول الله ، المفعم بالعقل والحكمة والقوة ، المنتصر على الدوام ،الأمير غالب ،الشريف العظيم على المدينتين المقدستين ،المهيمن على أجمل منطقة في شبه الجزيرة العربية .

أيها الأمير الشهير ،الصديق :

بعد أن استعلمت عن صحتكم، وتمنيت لكم كل السعادة التي تستحقونها، والتي تصبون لها، أبادر بأن أعلمكم بأني عينت قائدا عاما على الجيش الفرنسي (المقيم) الآن في مصر، بعد الاغتيال الرهيب الذي أودى بشخص سلفي صديقكم القائد العام كليبر.

إن صديقكم القديم بونابرت، القنصل الأول للجمهورية الفرنسية وأشهر محاربي أوربا، هو الذي عينني في مكانه، وإني لأهنىء نفسي إذ أتاح لي إمكانية التراسل مع من هو الأكثر قداسة من بين جميع الأمراء الذين يتبعون العقيدة الحقة، والذين يعبدون الله ويوقرون نبيه.

أيها الأمير الشهير:

لقد كلفني بونابرت بأن أجدد معكم كل مواثيق الصداقة، ومن ثم أبادر بأن أعرفكم بأن رعاياكم يستطيعون الحضور للسويس دون أي خوف، ومن الآن فصاعداً لن يلحق بالتجار إهانة أو تنكيد، وقد ألغيت كل القوانين القديمة لكيما لا أبقى إلا على قانون واحد مطلق، ولو أن فردا فرنسيا أو أي موظف آخر في جمرك

تجرا أن يأخذ مثقال ذرة واحدة(٣٢) أكثر مما حددت، فإنه سيدفع حياته إذ ذاك ثمناً لها، وقد فعلت ذلك مراعاة لكم، أيها الأمير الشهير.

ولقد كنت أريد أن أرسل لكم هذه السنة، كما كان ذلك في السابق، قافلة الحجيج، التي تضم من كل الأمم لأجل زيارة المدينتين المقدستين، وكنت أريد أن أرسل لكم الكسوة لتغطية الكعبة المقدسة، لكن ظروف الحرب لم تمكن من ذلك، وأرجو في العام المقبل أن أكون أحسن حظا، وسأنصب كأمير للحج مسلما يكون حريا بمهمة على هذا القدر من التشريف، وسأقوم، في النهاية، بكل ما من شأنه أن يبرهن لكم، أيها الأمير الشهير على مقدار رغبة الجمهورية الفرنسية في أن تكون على وفاق معكم، وإنني لأعتبر نفسي سعيدا إذ أكون لسان حالها، حيث أنها كلفتني بأن أقدم لكم التوكيدات الوطيدة لتقديرها العميق.

وأرجو الله ورسوله أن ينعم عليكم بعمر مديد، وبرخاء غير مقطوع، وانتصارات بلا عدد على أعدائكم.

ملحوظة: أرسل لكم أيها الأمير الشهير التعريفة الجمركية التي نفذتها في كل أنحاء مصر، وسترون أن الرسوم الجمركية أصبحت أقل قدرا في السويس مما كانت عليه في الماضي».

ونعود اليوم لنكمل مسيرة التنقيب في الموضوع ذاته، استنادا إلى مواد جديدة توافرت وقوامها:

- مجلة Courrier de l'Egypte

وهي النشرة الإخبارية التي أصدرتها الحملة، وكانت تعضدها نشرة علمية أخرى تحمل عنوان العشرية المصرية La Decade Egyptienne.

وكان هناك مشروع لإصدار نشرة عربية تحمل اسم: التنبيه، اختلفت الآراء حولها، وقد رجحنا – في بحث مطول – أنها لم تر النور قط[٣].

وصدرت ترجمة عربية لكل أعداد الـ «كورييه دي ليجبت» – بريد مصر – شغلت المجلد الأول من كتاب «صحف بونابرت في مصر» لصلاح الدين البستاني[٤].

- الإسلام وبونابرت L'Islam et Bonaparte

ويضم كل ما يتصل بموضوع علاقات بونابرت بالعالم الإسلامي.

Histoire Scientifique et Militaire de l'Expedition Française en Egypte

التـاريخ العلمي والحربي للحملة الفـرنسيـة على مصر (الجزء الرابع بقلم لـوى ريبو Louis Reybaud)

Contes du Cheykh et Mehdi

حكايات الشيخ المهدي، بقلم العالم الفرنسي الكبير جان مارسل Jean Marcel

والكتاب يتضمن حكـايات فـريدة في بـابها، نسب مارسل تأليفهـا للشيخ محمد المهـدي (الكبير) وترجمهـا في ثـلاثـة مجلدات، مع تصـديـر مستفيض عن الشيخ المهدي(*). إذا ما أضفنا هذه المصادر إلى القـائمة التي اعتمدنا عليها في القسم الأول جاز لنا أن نقول بأن هذه الوثائق المنشورة تمثل مادة صالحة لدراسة مسهبة حول جانب تاريخي يحفه الغموض والإثارة، ويفيض بالحيوية والدلالة.

الوثيقة الأولى

وتتضمن نص رسـالـة بعث بها بونابـرت إلى الشريف غالب بن مســاعد والأصل العربي للرسالة مفقود، واحتوى العدد الرابع والعشرون من صحيفة «الكوربيه دى ليجبت» على النص الفرنسي فحسب.

ويمكن مقارنة مـادة الرسالة بـالنصين الأول والثاني المنشورين في القسم الأول (بمجلة الـدارة) فهناك نقـاط مشتركة بينهما جميعا تتمثل في حـرص بونـابرت على إبلاغ الشريـف غالب بنبأ وصـول الحملة، ومحاولـة التوكيـد على هويتهـا المؤازرة للإسلام والمسلمين، والتي تـزعم في الوقت ذاته بأن الحملة هدفهـا القضاء على نفوذ المماليك فحسب.

وترجمة الرسالة:

«من القائد العام إلى شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

أعـرفك بـوصـولي إلى القـاهــرة على رأس الجيش الفـرنسي، وسترون من واقع الخطابـات التي يحررها لكـم الديوان وأشهـر تجار القاهـرة أني عينت أميرا للحج

مصطفى بك كخيـا أبو بكـر باشا والي مصر، سـوف يصحب المحمل ومعـه القوات اللازمة لتأمين سلامته من هجمات الأعراب عليها.

أخبروا جميع التجار المؤمنين أنه ليس للمسلمين أصـدقاء أوفى منا، وليعلم أيضا جميع الأشراف وكل من يقضـون أوقـاتهم ولا يـدخـرون وسعـا في تعليم الشعب والعمل على نشر تعاليم القرآن أنه ليس لهم حماة أكثر منا إخلاصا.

طمئنوا جميع التجار بأن التجـارة ليست فقط في مأمن ممن يحاولون النيل منها بل سنحميها أيضـا، سأحافظ دائما على مصالح الكعبـة المشرفة التي أعتبر حمايتي لها شرفا ومجدا لي.

وتفضلوا بقبول احترامي وعظيم تقديري لكم»[1].

الوثيقة الثانية

وتتضمن رد الشريف غـالب على رسالة بـونابـرت السابقـة، وهو رد يتكىء على إبراز الجانب التجـاري والاقتصادي قبل أي اعتبار آخـر، والنص العربي للرسـالة مفقـود، وهنـاك تـرجمة رسميـة لـه وردت في صـدر العـدد الـرابع والعشرين من «الكوريـيـه دى ليجيبت»، كما ورد هذا النص نفسـه في وثائق «الإسـلام وبونـابرت» ومحتوى الوثيقة يقول:

«بمشيئة الله يصل هذا الخطـاب ويسلم للأمير بونابرت صديق الكعبـة فليوجهه المولى إلى سبيله

بسم الله الرحمن الـرحيم، والسلام على سيدنا محمـد آخر النبين وسيد المرسلين من رب العالمين وصلوات تسليم على آله وعلى من اتبع سنته.

يلي ذلك الخاتم الكبير للشريف حيث يقرأ:

عبده: غالب بن مساعد، سنة ١٢٠٢هـ (تاريخ توليه الإمارة)

من الشريف غالب بن مسـاعد أمير مكـة، إلى الأمير بونابـرت حامي حمى العلماء وصديق الكعبة المشرفة.

بعد أن أعرب لكم عن سلامي ينبغي أن أخبركم بأنني تسلمت خطابكم الودي، وفهمت جميع محتواه، وقد رأيت بخاصة أنكم كلفتم الكخيا باشا القاهرة بمسئولية قيادة محمل الحجيج الإسلامي وإني لاحبي هذا الإجراء.

وأنتم تقولون لي أنكم عازمون على تشجيع الحجاج المسلمين على زيارة بيت الله، وأنهم يطلبون ضمانات وحماية من جانبنا، وليس ثمة شك في أنهم سيلقون حماية بفاعلية، ولن يحول مخلوق قط دون أن يزوروا الكعبة المشرفة وكذلك قبر الرسول ﷺ والمولى عز وجل لم يأمر ببناء بيته المقدس إلا ليكون مثابة للمسلمين. وهكذا يستطيع كل كائن من كان أن يأتي ليؤدي فريضة الحج كالعادة ولا يخشى من أي سوء يمسه.

أما بخصوص التشجيع المطلوب بالنسبة لتجارة البن، فلتعلم أن تجار الحجاز لم يطمئنوا بعد اطمئناناً كافيا حول المضايقات التي اعتادوا من قبل على ملاقاتها من المماليك، وإذا ما كنتم تعتزمون أن تعطوا لهذه التجارة كل الازدهار الذي هي جديرة به فينبغي اتخاذ التدابير الكفيلة بتهدئتهم، وعرفوهم بقيمة الرسوم التي تفرضونها على البن والبضائع الأخرى، وإذا ما قمتم بهذه المبادرة فإنكم سوف ترونهم يبادرون في جم غفير، وإلا فإن الخوف من أن يتعرضوا للمتاعب في معاملاتهم التجارية سوف يحول دون ذهابهم لمصر وأما ما تقولونه بخصوص البدو الذين قد يتعرضون للحجاج المسلمين بالأذى، فإن هذا لن يحدث أبدا بعون الله وبفضل حمايتكم الوطيدة.

تحية سلام على من اتبع سبيل التسليم»[٧].

الوثيقة الثالثة

وهي رسالة موجهة باسم مشايخ وأعيان القاهرة إلى شريف مكة، بإيعاز من بونابرت، والنص العربي مفقود وإن كانت هناك ترجمة رسمية فرنسية له وردت في صدر العدد السادس من صحيفة «الكوريبه دى ليجبت» كما ورد النص الفرنسي في مصادر ومراجع أخرى متنوعة، فمن ذلك الوثائق المنشورة تحت عنوان «الإسلام وبونابرت» وجاء أيضا في موسوعة «التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية على

مصر» - بالفرنسيـة - وجاء في هذا الكتاب تنويـه بالرسالـة التي اعتبرت نصا نادرا سواء من حيث أسلوبها ذى الطابع الديني أو من حيث الدلالة التاريخية.

وأورد جان جاك مارسل النص نفسه في كتـابه العجيب «حكايات الشيخ المهدي» وأكد فيـه أن الذي كتب الـرسالـة الشيخ محمد المهـدي (الكبير) وذكر مـارسل انه يحتفظ بالنص الـذي بخط الشيخ المهدي ونص الـرسالـة يقول على لسـان مشايخ وأعيان القاهرة:

«بعد تضرعاتنا الحارة إلى الله التي تلهج بها ألسنتنـا دائما أبداً ليحفظ مولانا امير المؤمنين، والتاج الملكـي للذرية الهاشميـة، وسليل النبي ﷺ الشريف غالـب سلطان مكة حفظه الله ليرمقه برعايته إلى أعلى مراتب المجد ويجنبه اي سوء تأتي به الأيام في تعاقب الليل والنهار، لما اكتسبه من بركات جده الكريم، وهو خير الشافعين.

نتشرف بإبـلاغ مولانـا الذي لا يكـف أبدا بعبقـريته عن رعـايـة مصالح الـدين والمؤمنين والسـادة آل عبدمنـاف احـد مشاهير أجـدادنـا أوليـائنا الشرفـاء وعلماء الإسلام في مكة والقضاة والأئمة الخطباء وعمـوم تجار وموظفي الحكومة في المدينة المقدسة أن اليـوم السابع من شهر صفر الذي كـان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسي على أراضي الجيزة على ضفاف النيل الغربية وشن في نفس اليوم هجوما على المماليك. استمرت المعـركة فيـه حوالي ساعتين، وكـانت عاقبتهـا وخيمة على المماليك الذين اضطروا للفـرار مع غروب الشمس، تاركين عددا كبيرا من جنـودهم في ساحة القتـال، وفي صباح اليـوم التالي تـوجه وفـد من علماء الشريعة وأعيـان القاهـرة إلى الجيزة طالبين الحماية والرعاية للمصريين ماعدا المماليك وأتباعهم، واستجاب القائد العام إلى طلبهم هذا. ثم طلب الوفد أن تلقى كـالمعتاد خطبة الجمعة التي تعود الأئمة الخطباء إلقاءها في المساجد يوم الجمعة عنـد صلاة الظهر. متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانيـة، فوافق القائد العام على أن تلقى هـذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من أخلص أصـدقاء السلطان العثماني وأنه يحب جميع الموالين لـه ويعتبر اعداء السلطان أعداء له شخصيا.

وأمـر في الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصلين لأداء الشعـائر الدينيـة والأذان وتلاوة القرآن بكل حرية في مدينة القاهرة كالمعتاد.

وتكرم أيضا بإبلاغ الوفد أنه يسلم في قرارة نفسه بأن الحقيقة التي لا زاغ فيها هي أن لا إله إلا الله وأن معظم الفرنسين يكنون لنبينا والقرآن الكريم أعظم تبجيل، وأكثرهم مقتنعون بسيادة الإسلام على جميع الأديان الأخرى، ودلل القائد العام على قوله هذا بإطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين وجدهم في جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها، وهدم الكنائس المسيحية والصلبان في جميع البلاد التي استولى عليها وخاصة في مدينة البندقية، حيث أحبط كل المكائد التي كان يتعرض لها المسلمون، وخلع بابا المسيحيين في روما، الذي كان يحل قتل المؤمنين، هذا العدو الأزلي للإسلام الذي كان يدخل في روع المسيحيين أن الله يكافىء على إهدار دماء المؤمنين الحقيقيين. إن هذا العدو لم يعد له وجود، وقد استراح منه المسلمون برعاية الله العلي القدير.

وعندما عاد الحجاج من مكة اقتربوا من القاهرة ذهب القائد العام بنفسه لملاقاتهم في مديرية الشرقية بعد سماع الأخبار بأن بعض الأعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم متاعهم وخيراتهم، فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا من بقي منهم على قيد الحياة بالخيول والطعام والزاد، وأسعفوا الجياع والعطاش.

وكان القائد العام قبل ذهابه إلى الشرقية قد كتب إلى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا إلى القاهرة حيث تجد أحسن استقبال، ولكن للأسف هذه الخطابات لم تصل إلى رجال القافلة الذين لاقوا مصيرهم المحتوم.

افتتحت قناة القاهرة (الخليج المصري) هذا العام باحتفالات غير عادية إرضاء للمؤمنين دون شك، وتبديدا لمخاوفهم وهمومهم.

وأجرى القائد (العام) توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين، وأقام وليمة كبيرة تكريما لأعيان البلد، كذلك أنفق أموالا كثيرة على الاحتفال بمولد النبي سيد المرسلين، وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين.

إن لله وإنا إليه راجعون – يجب الايخفى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة في تعيين أمير للحج واتخاذ جميع الإجراءات التي تسبق رحيل قافلة الحجاج، وكان من رأينا معه أن يسند شرف هذه المهمة إلى السيد المحترم الأمير مصطفى أغا وهو من

رجـال صاحب السعـادة أبـو بكر بـاشـا والي القاهـرة، ونحن نـرجو أن يلقى هـذا الاختيار وقعا حسنا من الباب العالي تأكيداً لحق من أعز الحقوق على قلبه.

لذلك فقد أضفى هذا الإجـراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المؤمنين.

يبـدي القـائد العام للجيش الفـرنسي نشـاطـاً كبيراً وإخلاصـاً عظيماً لمصـالح الحرمين ويتفقد كل ما يلـزم عمله بشـأن رحلة قافلـة الحجاج هذا هو ما أوصـانا به لتكونـوا على علم، باعتبارنا شهـود عيان بالعنـاية الفائقة التي يخص بها هـذا الأمر المهم لكي تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم.

السلام وألف سلام على هذا الرسول المجيـد الذي يعلن الحقيقة على العالمين وقد وهبه الله كل الفضائل والشمائل. سلام أيضا على آله وصحبه في رسالته السماوية.

عمل بالقـاهرة في ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣هـــ وقد ذيل بتوقيعات عـديدة جداء[٨].

الوثيقة الرابعة

وهي نص رسالـة بعث بها الشريف غالب إلى بونابـرت في ٣٠ من ذى القعدة من سنة ١٢١٣هـ (الثامن من فلوريال، العام السابع).

ومن البديهي أن هذه الوثيقة كتبت باللغـة العربية إلا ان أصلها هذا مفقود، ولكن هناك تـرجمة فرنسية رسميـة لها، ووردت في مجموعـة «الإسلام وبونـابرت»، هي التي تنقل هنا للغة العربية:

«من طـرف الشريف غالب بن الشريف (مسـاعد) أمير مكـة المكرمـة، إلى دعامـة أساطين الامبراطـورية الفرنساويـة، المعضد بأعلى مراتب التعضيد، صـديقنا الكبير بونابرت، قائد الجيوش الفرنساوية، والجامع لكل ألوان الرفعة والرفاهية.

بعد الدعـاء الذي ما نفتأ نؤديه من أجل رقيكـم، فإن لنا الشرف بأن نبلغكم باننا تسلمنا خطـابكم الشريف الذي أرسلتموه لنا، وقـد فهمنا كامل محتواه، وعلمنـا منه بـالـرسوم التي ستـؤدى عن البضـائع القـادمة عـن طريق البحـر الأحمر وكـذلك

البضـائع التي سمحتم بأن يعفى منهـا ٥٠٠ شحنة من الـرسـوم. وهذ الاستثنـاء المبارك لصـالحنا هـو برهـان جديـد على ثقتكم في صداقتنـا وسنجازي هـذه الثقة بإخلاص يتضاعف ولا ينقطع.

ونحن، تلبيـة لرغبتكم التـي أعربتم عنهـا في منـاسبات مـؤكـدة، قمنا بإرسـال الخطابـات الثلاثة التي بعثتموهـا عن طريقنا، الأولى للسلطان حيـدر طيبو Hyder Typoo، والثانيـة لإمام مسقط، والثالثـة للقائم بـالأعمال من قبلكم في مخا، ولنا أن نرجو بأن تصل إليكم الردود بعون الرحمن في أمد قريب.

وفي نيتنا أن نقوم بكل مـا في طاقتنا لكي نوطد صلاتنـا التجارية مع مصر، ولكي نقنع تجارنا بـالثقة وباليقين المنوطين بما قلتمـوه، والسلام والتفاهم المتبـادل الذي يسود بيننا، والذي لن يعكره شيء قط بعون الله.

وقد بددت عودة مبعوثنا (الـذي وصل إلى هنا في السابع من هذا الشهر) كل شك كانت قـد أثارته شـائعات كاذبـة مضللة، انتشرت بين تجار بلادنـا عن عدم ضمان استقرار المضاربات وبالخصوص فإن خطاب وزيركم الميمون، وما بذله من اهتمام بأبناء بلادنا».

وكان للعنـاية التي تفضل بتكـريسها لضمان نقل بضـائعهم أثر بـالغ القوة في أذهان التجار، الذين قاموا على الفـور بإرسال خمس سفن بعضهـا محمل لحسابنا، كما ستعاينون وفق الحالات.

ونحن نـرجـو أن تشملوا هـذه البضـائع بحمايتكم الشخصيـة وأن تصاحبهـا قواتكم من السويس حتى القاهرة، وأن تصدروا الأوامر لمراقبة سعر النقل الذي يتم بواسطة الأعراب، وبـذا فإن الحماية والرعاية نتيجتها الإسهام في مضـاعفة علاقتنا التجاريـة. وتستطيعون أن تعولوا على تبـادل تام لكل المتطلبات التي تـريدونها من ناحيتنا، فليبـارك المولى على الدوام مساعيكم الطيبة حيـالنا وليحفظ لكم حياتكم إن شاء الله.

ملحوظة: نرسل مع هذا بيان المبالغ المعتاد إرسالها إلينا من مصر في موسم الحج في ٢٣ من ذى القعدة من سنة ١٢١٣هـ (٩ فلوريال من السنة السابعة)(٩).

الوثيقة الخامسة

وهي رسالة بعث بها الشريف غالب إلى بوسييلج Poussielgue وهو رجل اقتصاد، عرفنا شيئا من أخباره في القسم الأول من هذه الدراسة التي تضمنت بدورها رسالة من الشريف غالب إلى بوسييلج هذا الذي عرفناه أنه كان «مراقبا لنفقات الجيش وعهد إليه نابليون بإدارة الشؤون المالية، وكان يثني عليه لكنه غضب عليه بعد عودته إلى فرنسا لما اطلع على رسائله إلى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته، ولما عاد إلى فرنسا أهمله نابليون:

وهو يذكر في رسائل الشريف غالب وفي «عجائب الآثار» للجبرتي تحت اسم «بوسيلك» ويوصف بأنه «مدير الحدود العامة بمصر».

والوثيقة المنشورة قبلا كانت باللغة العربية، وقد طبعها الفرنسيون والصقوها بالأسواق كما ذكر الجبرتي، أما الرسالة التي تنشر اليوم فإن نصها العربي مفقود، وتوجد منها ترجمة للفرنسية نشرتها «الكوربيه دى ليجبت» في صدر العدد رقم ٣٥ (١٩ ترميدور من السنة السابعة – ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٢١٣هـ) ونص الرسالة:

«يا أمير، أعز الأمراء وأشرفهم، يا قدوة معاصريه، يا ذا الأعمال الصالحة وصديقنا المخلص الحقيقي وزير المالية بوسييلج الذي بحكمته يذلل جميع الصعوبات التي تواجه إدارته بعد التسبيح لله عز وجل والسؤال عن صحتكم، نعلمكم بأن خطابكم وصلنا، وعلمنا مضمونه، وقد فحصناه جيدا، وفهمنا الأسباب التي أبديتموها بشأن قافلة مكة المكرمة ونحمد الله على ذلك.

لقد أفهمتمونا في خطابكم أن رعايانا قد اختلطوا بأعدائكم ولكن ليكن في علمكم أنه ما من أحد ممن يأتمرون بسلطتنا قد تجاسر أبداً على إقامة أية علاقة مع هؤلاء الذين تذكرونهم في رسالتكم، ويجوز أن بعض عرب الحدود هم الذين حاربوا ضدكم.

ونفيدكم أيضا أن سفننا قد ألقت مراسيها في السويس ويمكن استخدامها في شحن الكسوة الشريفة، والأبسطة المخصصة لبيت الله في مكة. ويمكنكم تسليم هذه

الوديعة الثمينة لوكيلنا محمد بن الحسين الذي نثق به كل الثقة، وهو الذي سلمكم رسالتنا هذه، وسوف يحضرها إلى هنا بإذن الله.

أعرفكم أيضا بأن لدينا سفينة بثلاثة صواري وأخرى بها اثنان، الأولى اسمها فتح الله الباري ومزودة بـ ٣٢ مدفعا والثانية اسمها فيض الله وبها ١٤ مدفعا.

الشريف السيد محمد عقيل وهو أحد أبناء عمومتنا يمتلك أيضا مركبتين إحداهما بثلاثة صواري، ومركب عبيد لها صاريان، ولما كنا نرسل عادة في كل سنة إلى شواطىء البلاد الهندية سفنا محملة ببضائع من الحجاز لمبادلتها ببضائع هندية، نطلب منكم أربعة جوازات سفر حتى لا تضايقها السفن الفرنسية والتي قد تلتقي بها في مياه البحار الهندية أو الحجازية ولا في ذهابها ولا في إيابها.

عندما تصلنا هذه الجوازات سنرسل فورا بإذن الله هذا الأسطول محملا بأندر منتجات الحجاز إلى شواطىء وموانئ الهند التي نمتلكها، وستظل هذه الجوازات في أيدي قباطنة مراكبنا. أرسلوها لنا في أسرع وقت ممكن لأن المراكب مستعدة للإبحار. هذا كل ما عندنا لنقوله لكم، ونرجو ألا تنقطع مراسلاتنا المتبادلة صلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين»[١٠].

هذا كل ما تيسر لنا جمعه – بعون المولى عز وجل – وقد راعينا في ذلك الدقة وعدم إضافة شيء في الترجمة اللهم إلا ما تطلبه الأسلوب، وهناك وثائق كانت في الأصل بالعربية لكن أصولها ضاعت، ولم تبق إلا الترجمات الفرنسية وهي التي اعتمدنا عليها في محاولة تيسير النص باللغة العربية لهذه الوثائق ذات القيمة التاريخية النادرة.

هوامش البحث:

١) راجع القسم الأول من هذه الدراسة في مجلة «الدارة» العدد الثالث من السنة السادسة.

٢) الجبرتي: عجائب الآثار (القاهرة ١٢٩٧هـ) جـ ٤ ص ٢٦٢.

٣) انظر دراسة لنا بعنوان: حول جريدة التنبيه ونشأة الصحافة العربية في مصر في مجلة «الكاتب» القاهرية سنة ١٩٧٧م.

٤) صحف بونـابرت في مصر (القاهـرة ١٩٧١) المجلد الأول: كوربيـه دى ليجيبت، واستعنا بها في عدد من المواضع.

٥) J.J. Marcel: Contes du Cheykh el-Mahdi (باريس ١٨٣٥) ص ٧٥-٨٥.

وراجع دراستنا حكايات الشيخ المهدي في مجلة «فصول» (القاهرة ١٩٩١م).

٦) كـوربيه دى ليجبت، العـدد ٢٤، ١٧ نيفـوز من السنة السـابقـة (١٧٩٨م) نقلا عن تـرجمة البستاني.

٧) المرجع السابق، ص ٨٨ وانظر النص الفـرنسي في مجموعة: Islam et Bonaparte الجزء الثاني ص ٩٠ وقمنا بترجمة النص عن الفرنسية.

٨) كوربيه دى ليجبت، العدد السادس، وتأتي في أكثر من مرجع فمن ذلك:

- موسـوعة التاريخ العلمي والعسكـري للحملة الفرنسيـة على مصر (بالفرنسيـة) - باريس ١٨٣٠-١٨٣٦م المجلد الرابع، (تأليف: لوي ريبو) ص ٨١ وما بعدها.
- حكـايات الشيخ المهـدي (بـالفـرنسية) الجزء الأول ص ٧٥ ومـا بعـدها (طبعـة بـاريس ١٨٣٥م) وأوردنا هنا ترجمة البستاني مع مطابقتها على النص الفرنسي.

٩) نقلا عن الجزء الثاني من مجموعة: الإسلام وبونابرت ص ٩٥ وما بعدها (بالفرنسية).

١٠) كوربيه دى ليجبت، العدد السادس، ترجمة صلاح الدين البستاني.